الحملة الصليبية الرابعة
ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية

الدكتورة
إسمت غنيم
جامعة الإسكندرية

١٩٨٢



دار المعارف

الحملة الصليبية الرابعة

ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية

الدكتورة
إسمت غنيم
جامعة الإسكندرية



دار المعارف

١٩٨٢

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعتبر الحملة الصليبية الرابعة من أغرب الأحداث فى تاريخ الحـــروب الصليبية ، لما اتسمت به من طابع مميز عن باقى الحملات الصليبية الأخرى ، ولما ترتب على إنحرافها من نتائج .

وقد استحوذت هذه الحملة على إهتمام عدد كبير من المؤرخين حاولوا البحث عن أسباب إنحرافها وإتجاهها ضد القسطنطينية ، ذلك البلد المسيحى ، بدلا من اتجاهها ضد مصر لفتحها ثم الاستيلاء بعد ذلك على الأراضى المقدسة فى فلسطين كما كان مقررا لها .

وقد انقسم المؤرخون الذين عالجوا هذا الموضوع إلى فريقين فريق ارجع هذا التغيير فى اتجاهها إلى (التعمد) ومنهم على سبيل المثال المؤرخون الفرنسيون الكونت ريان Conte Riant وماس لاتيرى Mas—Latrie وهانوتوكس Hanotoux والمؤرخان الالمانيان هوبف Hopf ، ووينكلمان Winkelman . وفريق آخر ارجع هذا التغيير فى اتجاه الحملة إلى (الصدفة) ومنهم على سبيل المثال أيضا ، المؤرخ الالمانى نوردن Norden والفرنسى لوشير Luchaire .

وقد عالج جميع المؤرخين ، سواء أصحاب نظرية التعمد أو نظـــرية الصدفة ، هذه الحملة فى ضوء دوافع الغرب اللاتينى وحدها ، وعدائه المتراكم ضد الدولة البيزنطية ، لكن احدا منهم لم يحاول إلقاء الضوء على دور البيزنطيين أنفسهم ومسئوليتهم فى العمل على إنحراف هذه الحلمة ضد عاصمتهم ، وهو

ما أراه أقرب إلى الحقائق التاريخية ، كما سيتضح من خلال هذا البحث .

والجدير بالذكران أهم المصادرالتى امدتنا بالمعلومات التاريخية عن الحملة الصليبية الرابعة هو كتاب المؤرخ المعاصر جيوفرى فيلهاردوين Geoffrey Villehardouin من شامبنى ، والذى شارك فى الحملة الصليبية وكان يشغل منصب ماريشال Marshall وقد دون أحداث الحملة يوما بيوم بأسلوب قوى ، واضح ، ومباشر .

وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن فيلهاردوين كان على مقربة من واقع الأحداث ، فقد كان منصبه يلى مباشرة كل من قائد الحملة الماركيز بونيفيس أوف منتفرات (١) والكونت بلدوين أوف فلاندرز وهينولت (٢) . مما أتاح له المشاركة فى صنع القرارات التى اتخذها المجالس العسكرية للحملة والاطلاع على الوثائق الهامة الخاصة بالحملة ، وكثيرا ما أرسل كرسول من طرف الصليبين ومتحدثا رسميا بأسمهم إلى مختلف القوى .

وقد أتى فيلهاردوين فى كتابه عن «فتح القسطنطينية بواسطة البارونات الفرنسين ومشاركة البنادقة فى عام ١٢٠٤» .

la Conqueste de Constantiople par les Barons francais associez aux Venitians l'an 1204.

بوصف دقيق لكافة أحداث الحملة الصليبية الرابعة منذ بداية تكوينها وحتى سقوط العاصمة البيزنطية فى أيدى الصليبين فى عام ١٢٠٤ ثم تتبع الأحداث التالية سواء الخاصة باللاتين أو الأمارات التى أسسها بعض رجال الطبقة

---

(١) بخصوص الماركيز بونيفيس ومركزه فى الغرب الأوروبى وصلات عائلته ببيزنطة انظر الفصل الثالث من هذا البحث

(٢) يوجد فى الفصل الرابع من البحث نبذة عن الكونت بلدوين أوف فلاندرز وهينولت .

الارستقراطية البيزنطية حتى عام ١٢٠٧ م .

وقد حاول فيلهاردوين فى كتابه هذا أن ينسب فتح القسطنطينيةللبارونات الفرنسيين وحدهم وأظهر دور البنادقة فى هذا الفتح علىأنهدورثانوىواقتصر على مشاركة الفرنسيين فى هذا العمل الذى يعتبره فيلهاردوين عملا بطوليا قام به بنى جلدته الفرنسيين .

وقد دون فيلهاردوين كتابه بالفرنسية القديمة ، وظهرت ترجمة إنجليزية له هى التى اعتمدنا عليها فى بحثنا هذا نشرها Sir Marzials فى لندن فى عام ١٩٦٥ .

وأتفق مع د. بيريل سمالى الذى يقول أن فيلهاردوين «لم يكن من مؤلفى الروايات الخيالية ، فقد روى الأحداث الحقيقية والمدهشة فى قصة غزو جيش صغير لمدينة كانت آنذاك قوية بحصونها . غنية بكنوزها ، ولو أنه استخدم المحسنات اللفظية وقصص المعجزات لكانت أفسدت تأثيره .

كان جيوفرى ذا نظرة ثاقبة فيما يتعلق بالتفاصيل العسكرية كما أنه يتميز بالقدرة على نقل إنطباعه إلى القارىء مباشرة .

وكانت صياغة الخطب مصدر إزعاج بالنسبة له ، ورغم أنه كان يشارك فى إجتماعات القادة ، إلا أنه كان يقنع بملخص موجز لما قيل فى هذه الاجتماعات دون أن يزينه بالزخارف البلاغية ...... أن مذاكراته قيمة وثمينة كموضوع جديد» . (١)

وهنا مؤرخ آخر هو روبرت كلارى Robert De Clari وهو أحد

(١) سمالى : المؤرخون فى العصور الوسطى ، ترجمة د . قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٨٨ ، ص ١٩١ .

الفرسان إشترك فى الحملة الصليبية الرابعة ودون أحداثها منذ البداية وحتى سقوط القسطنطينية فى أيدى (فرسان المسيح الحجاج) فى عام ١٢٠٤ وإنتهى الكتاب بسرده لموقعة هادريانوبل فى ابريل ١٢٠٥ . ومعلوماتنا عن روبرت كلارى ضئيلة للغاية وكل ما نعرفه عنه أنه من مقاطعة كليرى لى بيرنوا Clery Les permoisوقد نسب إليها فسمى كلارى . وقد أسهم روبرت فى الحملة الصليبية الرابعة تحت لواء أحد كبار السادة الاقطاعيين الفرنسيين ويدعى بطرس دامیان Pierre D'Amiehs وكتاب روبرت كلارى الذى أطلق عليه اسم «فتح القسطنطينية» Lacoquete deconstantinople مدون باللغة الفرنسية القديمة أيضاً شأنه شأن كتاب فيلهاردوين وقد قام مسيو فيليب لاور Philippe lawer أمين قسم المخطوطات بالمكتبة الأهلية بباريس بنشره فى مجموعة :

les classiques francais du moyen age

وقد اعتمدنا على هذه الطبعة التى نشرت فى باريس فى عام ١٩٢٤ .

ومن خلال دراستنا لهذا المصدر نستطيع القول أن روبرت كلارى كان يمثل وجهة النظر الشعبية فى الحملة الصليبية الرابعة ورغم أن بعض الأحداث التى ذكرها والخاصة بالتاريخ البيزنطى قبل سقوط القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ فيه الكثير من المغالطات التاريخية والخيال الذى يدل دلالة واضحة على ضئالة معلوماته شأنه شأن معظم الطبقات الشعبية التى اشتركت فى الحملة الرابعة ، ورغم أن تواريخه غير دقيقة ، إلا أنه أتى ببعض التفاصيل لأحداث تعتبر مكملة لتاريخ فيلهاردوين ، كما أنه أتى بوصف تفصيلى للغنائم التى غنمها الصليبيون من القسطنطينية بعد فتحها وكذلك جاء بوصف لا بأس به للقصور الامبراطورية ولبعض الكنائس والأطلال التى رآها بالقسطنطينية مما يساعد

الباحثين فى التاريخ البيزنطى على الإلمام بما وجد بالقسطنطينية وقتذاك من منشآت ضخمة وكذلك يدل دلالة واضحة على مدى الثراء الذى تمتعت به القسطنطينية آنذاك .

وفى مجال المقارنة بين تاريخى فيلهاردوين وروبرت كلارى ، أرى ان الأول يتفوق على الثانى ، حقيقة أن الأثنين كانا معاصرين واشتركا فى الحملة ولكن فيلهاردوين كان يشغل منصبا كبيرا مما أتاح له أن يكون على إتصال أكثر بالأحداث ، ومن ثمة فان تاريخه أجدر بالثقة .

هذا إلى جانب رسائل البابا اينوسنت الثالث (١) إلى الصليبيين فى مختلف المناسبات ، تلك الرسائل التى ألقت الكثير من الضوء على العديد من الأحداث ، قد حوتها مجموعة Patrologia Latina التى نشرت فى باريس فى عام ١٨٥٥ م .

وبخصوص الأحداث الخاصة بالدولة البيزنطية ، فقد أمدنا بعض المؤرخين البيزنطيين بالمعلومات التاريخية عنها ، وعلى الأخص المؤرخ المعاصر خونياتيس Nicetas Choniates الذى يطلق عليه أحيانا نقيتاس اكوميناتوس Nicetes Acominatus

ولد نقيتاس فى مدينة خوناى Chonae فى اقليم فريجيا فى آسيا الصغرى وتوفى فى عام ١٢١٣ م ، وقد إشتغل بالسياسة وتولى عدة مناصب هامة فى الدولة ، فأثناء حكم الامبراطور اسحاق انجيلوس كان نقيتاس يشغل منصب السكرتير الامبراطورى ، ثم تولى حكم ثيم فيلبوبوليس Philippopolis فى اقليم مقدونيا ، ثم شغل منصب المستشار الاعظم Grand Logothete وبعد

---

(١) فيما يتعلق بالبابا اينوسنت الثالث وجهوده من أجل السمو بالبابوية ، أنظر الفصل الثالث من هذا البحث .

استيلاء اللاتين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ فر إلى نيقية واستقر فى بلاط الامبراطور ثيودور الأول لاسكاريس ، وكتابه Historia أرخ فيه للفترة الواقعة بين ١١١٨ — ١٢٠٦ .

ونشر هذا الكتاب فى مجموعة :

Corpus Scriptorum Histo- riae Byzantinae

التى نشرت فى مدينة بون عام ١٨٣٥ .

كذلك تمت الاستعانة فى هذا البحث بالعديد من المؤلفات الفرنسية والألمانية والأنجليزية ، لكبار المؤرخين الذين تعرضوا لسرد وتحليل أحداث الحملة الصليبية الرابعة .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى عرض وجهة نظرى الخاصة بهذا الموضوع مما يفتح آفاقا جديدة أمام الباحثين فى التاريخ البيزنطى وتاريخ الحروب الصليبية على حد سواء .

والله الموفق ،

اسمت غنيم

لوران
٧ يوليو ١٩٨١

الآراء المختلفة حول تغيير اتجاه الحملة

- مسئولية كل من :

  البابا اينوسنت الثالث .

  الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات .

  البنادقة ودوقهم انريكو داندولو .

  الملك الالمانى فيليب السوابى .

- معالجة الحملة فى ضوء العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية بين الشرق والغرب .

اختلفت الآراء حول مسئولية تغيير إتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية ، وقد أرجع بعض المؤرخين مسئولية هذا التغيير إلى البابا اينوسنت الثالث ، بدافع أساسى هو العداء القديم بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ورغبة البابا فى اخضاع كنيسة القسطنطينية للسيادة البابوية والانتقام من البيزنطيين الذين عرقلوا مرور القوات الصليبية وسببوا لها المتاعب منذ قيام الحروب الصليبية (١) .

أما المؤرخ الفرنسى تسييه Tessier فقد حمل الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات قائد الحملة ، مسئولية هذا التغيير فى إتجاهها ، وأوضح أنه كان صاحب الدور الرئيسى والأقوى ، وأن فتح القسطنطينية ، كان عملا عظيما ولكنه ليس المانيا أو بندقيا ، وإنما فرنسيا (٢) .

لكن المؤرخون كارل هوبف وماس لاتيرى وادوين بيرز يفقون على أن البنادقة ودوقهم العجوز انريكو داندولو (٣) هم المسئولون عن هذا التغيير فى إتجاه الحملة ويستندون فى رأيهم هذا على المعاهدة التى أبرمت بين البنادقة وسلطان مصر الملك العادل الأيوبى .

فقد أوضح المؤرخ الألمانى هوبف أن البنادقة غرروا بالصليبيين وأنهم فى الوقت الذى إتفقوا معهم فيه على نقلهم إلى مصر وكان الصليبيون ينتظرون

---

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Vol II, P. 455.

بخصوص المزيد من التفاصيل عن دور البابا اينوسنت الثالث فى توجيه الحملة ضد القسطنطينة أنظر :

عبيد : روما وبيزنطة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٠٤ — ٣٥٣ .

(2) Tessier (Y) : La quatrieme Croisade, La division sur zara et Constantinople, Paris, Laroux, 1884, PP. 174 — 238.

(٣) فيما يتعلق بدوق البندقية اتريكو داندولو أنظر الفصل الثالث من هذا البحث .

فى الليدو Lido استعدادا للذهاب إلى مصر ، فى نفس الوقت ، كان البنادقة يبرمون معاهدة مع الملك العادل الأيوبى حاكم مصر آنذاك .

ويقول هوبف فيما يتعلق بهذه المعاهدة أن الملك العادل أرسل رسلا إلى البندقية مع هدايا ثمينة للدوق داندولو وقدم له هؤلاء الرسل مشروع معاهدة تجارية فحواها أن يغير البنادقة إتجاه الحملة الصليبية عن مصر مقابل منحهم امتيازات جديدة هى حى خاص بهم فى الاسكندرية ومنحهم الأمان لأنفسهم وبضائعهم والحجاج الذين يفدون معهم لزيارة الأراضى المقدسة وقد أرسل الدوق داندولو رسولين من قبله هما مارينوداندولو Marino Dandolo ودومنيكوميشيلى Domenico Michieli للرد على سفارة الملك العادل ، وتمكنا من إبرام المعاهدة فى القاهرة فى ١٣ مايو ١٢٠٢ ثم عادوا إلى البندقية ومعهم أحد الأمراء المسلمين نائبا عن السلطان للتصديق عليها من جانب — داندولو (١) .

وقد بنى المؤرخ الفرنسى ماس لاتيرى رأيه أيضاعلى هذه المعاهدة التى أبرمت بين البنادقة والملك العادل ، وأرجع دوافع البنادقة وراء هذا العمل ، إلى الانتقام بعنف للأضطهادالذى عانوا منه فى القسطنطينية ومن أمثلتهماتعرض له داندولو ومواطنيه من السجن بناء على أوامر الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس رغم المعاهدات التى بين الطرفين . وهناك دافع آخر هو رغبة البنادقة فى استعادة مركزهم وامتيازاتهم التجارية فى العاصمة البيزنطية ، تلك

---

(1) Hopf : Geschichte griechenlands von Beginn des Mittelalters lis unsere zeit, in **Erschlgruber**, Encyclo-pedia vols. 85 — 86, (1867—68), P. 188.

الامتيازات التى حرمهم منها الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس ومنحها لمنافسيهم الجنوية والبيازنة (١) .

كذلك اعتمد المؤرخ أدوين بيرز فى رأيه على هذه المعاهدة وقال بأن التفوق الذى أحرزته جنوا وبيزا على البندقية فى القسطنطينية ، قد عوضته هى فى مصر ، عن طريق الامتيازات التى حصلت عليها هناك ، وأن ثمن هذه الامتيازات كان خيانة المسيحيين والقضية الصليبية . ويضيف بيرز سببا آخرا لعداء داندولو للعاصمة البيزنطية ورغبته فى الانتقام منها ، وهو أنه فقدبصره بأمر من الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس وذلك أثناء زيارتهللقسطنطينية فى عام ١١٧٢ أو عام ١١٧٣ (٢) .

وهناك فريق آخر من المؤرخين حمل الملك الألمانى فيليب السوابى مسئولية إنحراف الحملة ضد القسطنطينية ، نظراً لأن فيليب كان مرتبطا بروابط المصاهرة مع الامبراطور المخلوع اسحاق انجيلوس ، الذى زوجه من ابنتهايرين وبالتالى فقد وجه فيليب الحملة ضد القسطنطينية حتى يعيد لوالد زوجته عرشه المفقود . ومن جهة أخرى حتى يحرز التفوق على البابوية أثناء صراعه معها بتوجيهه الحملة الوجهة التى يراها ، وبذلك يجرد البابا من سيطرته عليها .

وأول من حمل فيليب السوابى مسئولية إنحراف هذه الحملة ضد العاصمة البيزنطية هو البابا اينوسنت الثالث نفسه فقد جاء فى خطابه إلى الامبراطور البيزنطى اليكسيوس الثالث انجيلوس فى ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ ما يلى :

(1) Mass Latrie : Histoire de l'ile de Chypre sous le regne des princes de la maison de Lusignan, 3 Vols. Paris, 1852 — 61, Vol. 1, pp. 1611 — 164.

(2) Pears : The Fall of Constantinople, Being the Story of the Fourth Crusade, New York, 1975, pp. 263 — 146, P. 233.

«.. أننا لم نعر أى اهتمام مطلقا لاليكسيوس ابن الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس ، الذى ذهب لفيليب دوق سوابيا لكى يحصل على مساعدته من أجل إنتزاع الامبراطورية منك» .

وفى موضع آخر من نفس الخطاب ، يقول البابا :

«.. وحينما أجبناه طبقا لما نراه صالحا ، انسحب من عندنا وتوجه بخطى سريعة نحو فيليب — زوج شقيقته — المذكور آنفا ، وحينما تشاوروا معا ، أرسل فيليب على الفور رسله إلى زعماء الجيش المسيحى ، يلتمس منهم ضرورة اقتحام مملكة القسطنطينية مع اليكسيوس ، وأنهم يجب أن يعيروه النصح والتأييد من أجل استعادتها لأنه ووالده جردا من حقهما فى الامبراطورية ظلما» (١)

كذلك أرجع المؤرخ البيزنطى المعاصر نقيتاس خونياتيس Nicetas Choniates المسئولية إلى فيليب السوابى ، وأوضح نقيتاس أن الامبراطور المخلوع اسحاق انجيلوس قد أرسل وهو فى سجنه خطابات إلى ابنته ايرين زوجة فيليب السوابى ملك المانيا ، يطلب منها أن تنتقم لوالدها ، وقد أجابت ايرين عليه مظهرة استعدادها لتحقيق كل ما يطلب ، وأن الأمير اليكسيوس قد تمكن من الهرب بعد ذلك من السجن ، على ظهر سفينة بيزيه وتمكن من الوصول إلى ألمانيا حيث رحبت به شقيقته ايرين وطلبت من زوجها فيليب أن يبذل له الحماية والمساعدة من أجل استرداد العرش البيزنطى وأن زوجها قد استجاب لذلك (٢)

وهناك أيضا المؤرخ الفرنسى الكونت ريان الذى يرى أن فيليب السوابى

(1) Innocentii III : Epistolae, in Patrologia, latina ed Paris 1855 Vol. CCXIV, Cols 1123 — 1124.

(2) Coniates : Historia, ed. Bekker, in Corpus scriptorum Histor iae Byzantinae, Bonn, 1835, p. 710 712.

هو المسئول عن توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، وأن هذا العمل من جانب فيليب كان شيء ذا أهمية فى النضال الطويل بين البابوية والامبراطورية الألمانية وأن دوره القيادى فى تغيير إتجاه هذه الحملة كان من أجل أن يعيد إلى العرش البيزنطى حليفه ووالد زوجته اسحاق انجيلوس ، وان ذلك بلاشك سيخدمه فى نضاله مع البابا ومنافسه فى ألمانيا أوتواوف برنسويك oto of Brunswick ، وأن بونيفيس أوف مونتفرات كان أداة الامبراطور فيليب الذى نفذ سياسته فى الشرق (١) .

أما المؤرخ الألمانى وينكلمان ، فقد دلل على رأيه فى إتهام فيليب السوابى بثلاثة براهين ، أولها أن الامير اليكسيوس إنجيلوس جاء إلى الصليبيين يطلب مساعدتهم تحت حماية فيليب السوابى ، والثانى أن العداء بين فيليب السوابى والبابا كان لايزال قائما والنضال بينهما مستمرا ، لذلك رأى فيليب أن يقوم بدور قيادى للحملة الصليبية الرابعة ويوجهها الوجهة التى يراها حتى يبدو العرش الالمانى متفوقا على البابوية . وثالث هذه البراهين ، ان فيليب كان يدرك رد الفعل الذى سيحدث لدى البابا اينوسنت الثالث نتيجة تغيير إتجاه الحملة ، وعدم تنفيذ أوامره الخاصة بإتجاهها ضد المسلمين وإستعادة الاراضى المقدسة ، لذلك كان فيليب حريصا على أن يتضمن الاتفاق الذى تم بين الامير اليكسيوس والصليبيين بندا يرضى البابا ، وكان هذا البند هو الخاص بإخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية . وقد أيد وينكلمان رأيه بإدانة فيليب السوابى ومسئوليته عن انحراف الحملة ضد القسطنطينية بما ذكره أحد أصحاب الحوليات الالمان فى القرن الثالث عشر الميلادى ، من أن القسطنطينية قد حوصرت «بأمر

(1) Riant : Innocent III, Philippe de Sovuabe et Boniface de Montferra dans Revue des questions historique, XVII, 1875, pp. 331 — 366, XVIII, 1875, pp. 69 — 72.

الملك فيليب» ، كذلك لحرص فيليب السوابى على حق زوجته فى العرش البيزنطى بعد وفاة والدها وشقيقها (١) .

وقد حلل المؤرخ الألمانى نوردن فى بحثه القيم أسباب تغيير إتجاه الحملة الصليبية الرابعة ، وأوضح أن اتجاهها ضد القسطنطينية كان بمثابة (فك عقدة) الصراع القديم بين الغرب الأوروبى والدولة البيزنطية ، ذلك الصراع الذى أصبح حادا منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى .

وقد بدأ نوردن بإستعراض النضال بين الدولة البيزنطية والنورمان فى جنوب إيطاليا ، منذ أيام روبرت جويسكارد (ت ١٠٨٥) الذى استولى فى عام ١٠٧١ م على مدينة بارى آخر معقل للبيزنطيين هناك ، وحتى أيام وليم الثانى (ت ١١٨٩) . وأوضح أنه بعد مائة عام من تاريخ وفاة روبرت جويسكارد تمكن النورمان من الاستيلاء على سالونيك التى تلى فى الأهمية القسطنطينية مباشرة ، وقد تمكن الامبراطور اسحاق انجيلوس من إرسال جيش بقيادة القائد البيزنطى اليكسيوس باراناس Alexius Baranas استطاع أن ينزل الهزيمة بالنورمان عند ديمترياس Demetries فى ٧ نوفمبر ١١٨٥ ، وفى العام التالى تمكن من استعادة كل ما فتحه النورمان من أراضى بيزنطية حتى كيفالونيا .

وقد ظل النورمان على عدائهم للدولة البيزنطية وظلوا يطعمون فى تدميرها وحين آل عرش النورمان إلى الامبراطور الالمانى هنرى السادس عن طريق زواجه من الأميرة النورماندية كونستانس وريثة هذا العرش ، ورث ضمن ما ورث من تركة النورمان عداءهم للدولة البيزنطية ، بالاضافة لما كان يضمره

(1) Winkelmann : Philip Von Schwaben und Otto IV, Von Braunschweig, (Leipzig 1873 - - 78) Vol. I, pp. 524 — 28.

الالمان أصلا من كراهية للبيزنطيين ، وكان هنرى السادس يحلم بوضع تاج خلفاء قسطنطين فوق رأسه ، وقد أعد حملة بالفعل وكان فى طريقه للقسطنطينية لولا أن حالت وفاته فى سن مبكرة دون إتمام هذا المشروع . على أن شقيقه فيليب السوابى الذى خلفه فى حكم المانيا ، لم يستطع أن ينفذ سياسة هنرى السادس الحربية ضد بيزنطة ، وذلك بسبب اشتعال الحرب الأهلية فى المانيا بينه وبين منافسه أوتواوف برنسويك ، لذلك لجأ فيليب السوابى إلى سياسة مصاهرة العائلة البيزنطية الحاكمة ، وكانت هذه السياسة فرعا آخرا من خطط هنرى السادس العظيمة للفتح ، وعن هذا الطريق يؤول للالمان عرش بيزنطة فى يوم ما .

واستعرض نوردن بعد ذلك العداء بين الدولة البيزنطية والصليبيين الذى بدأ منذ تأسيس المملكة الصليبية فى الشام وفلسطين ، وموقف البيزنطيين من الحملات الصليبية حتى الحملة الصليبية الثالثة التى اشترك فيها امبراطور المانيا فردريك بربروسا ، الذى فكر فى فتح القسطنطينية بعد المتاعب التى أثارها أمامه البيزنطيون . وقد كان استيلاء الصليبيين على العاصمة البيزنطية مما يفتح الطريق أمامهم إلى الأراضى المقدسة ويساعدهم على الدفاع عن هذه الأراضى .

ثم إنتقل نوردن إلى استعراض العلاقات بين الدولة البيزنطية وجمهورية البندقية ، تلك العلاقات التى بدأت طيبة بعد وقوف أسطول البنادقة إلى جانب الامبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس أثناء صراعه البحرى مع روبرت جويسكارد ١٠٨١ . وفى العام التالى عقدت معاهدة بين الامبراطور وجمهورية البندقية ، وبمقتضاها حصلت البندقية على أول امتيازاتها التجارية العظيمة فى القسطنطينية ، وذلك عن طريق منحها حيا كبيرا لمواطنيها فى العاصمة ،

واعفائها من المكوس فى الموانى البيزنطية . ثم تطورت العلاقات بين الطرفين بشكل أدى إلى تفوق الجنوية والبيازنة على البنادقة فى القسطنطينية واستعادة البندقية لنفوذها فى عام ١١٨٥ فى عهد اسحاق انجيلوس ثم حرمانها من امتيازاتها فى عهد شقيقه مغتصب العرش اليكسيوس ، ورغبة البندقية فى استعادة هذه الامتيازات باشتراكها فى اعادة حليفها السابق اسحاق انجيلوس إلى العرش عن طريق توجيه الحملة الرابعة ضد القسطنطينية ، وانتقام دوق البندقية داندولو من البيزنطيين الذين تسببوا فى فقدانه بصره .

يضاف لذلك كله ، العداء الدينى بين الغرب اللاتينى وكنيسة روما وبين الشرق الهللينستى وكنيسة القسطنطينية (١) .

وهكذا ناقش نوردن قضية الحملة الصليبية الرابعة فى ضوء العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية بين الغرب والشرق ، وأوضح العلاقة الخفية بين اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية وبين تاريخ المائة والخمسين سنة السابقة .

من هذا العرض يتضح اختلاف وجهات النظر بين المؤرخين حول هذا الحدث التاريخى الخاص بإتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية وفتحها وإقامة مملكة لاتينية بها ، بدلا من إتجاهها ضد مصر ومحاربة المسلمين واسترداد الأراضى المقدسة فى فاسطين .

وقد دفعت كثرة المناقشات التى ثارت حول هذا الموضوع ، المؤرخ

---

(1) Norden (w) Der vierte kreuzzug in Rahmen der Beziehungen des Abendlandes zu Bysanz. (Berlin, 1898)- pp. 1 — 47.

الفرنسى أشيل لوشير إلى القول «ان علم التاريخ لديه أشياء أخرى يفعلها أفضل من مناقشات لا تنتهى حول مشكلة لا تحل» (١) .

ورغم أهمية هذه الآراء كلها وقيمتها الكبيرة ، إلا أننى أرى أن الأحوال الداخلية التى مرت بها الدولة البيزنطية فى هذه الفترة من تاريخها ، كانت هى المسئول الأول عن إنحراف الحملة الصليبية الرابعة وإتجاهها ضد القسطنطينية ، وذلك على النحو الذى سيتم توضيحه فى الفصول التالية من هذا البحث .

---

(1) Luchaire (A) : Innocent III , La question d'orient, Paris, Librairie Hachette, 1907, P. 97.

الفصل الثانى

مسئولية البيزنطيين

- انهيار القوة العسكرية
- انحلال الجهاز الادارى
- الصراع من أجل العرش

لقد عانت الدولة البيزنطية فى هذه المرحلة من تاريخها من عوامل متعددة كانت السبب فى اضطراب أحوالها الداخلية ، وأفسحت المجال للغرب الأوروبى للتدخل فى شئونها وتحقيق أحلامه فى القضاء عليها :

وأول ما عانت منه الدولة كان ضعف قوتها العسكرية ، فان الجيش والاسطول اللذين كانا مثار فخر البيزنطيين فى عهودهم السابقة ، وحققت الدولة عن طريقهما الكثير من الانتصارات والفتوحات ، أصبحا الآن على درجة من الاضطراب والضعف .

وإذا سلمنا بتلك العبارة التى وردت على لسان الامبراطور قسطنطين السابع ، والتى قال فيها «ان الجيش للدولة كالرأس للجسد إذا إنتابه الضعف تعرضت الدولة للخطر» ، أدركنا مدى الخطر الذى كان يتربص بالدولة البيزنطية نتيجة لذلك .

وكان الجيش فى العصر الذهبى للامبراطورية ، وأعنى به القسم الأول من عهد الاسرة المقدونية (١٠٦٧ — ١٠٢٥) ينقسم إلى قسمين : القسم الأول هو التاجماتا Tagmata وكان يرابط فى العاصمة وضواحيها . والقسم الثانى هو الثياماتا Themata أو جيوش الولايات ، وكان يرابط فى الولايات .

وقد تكون القسم الأول (التاجماتا) من أربع فرق للفرسان هم الاسكلارية Scholas والاكسكوبيتر Excubitor والاريثموس Arithmos ، والهيكاناتاس Hicanatas كما ضم فرقة للمشاة عرفت باسم نوميرى Numeri

وكانت هذه الفرق الخمس تكون قوة الحرس الامبراطورى وتضم الواحدة منها ما يقرب من أربعة آلاف إلى عشرة آلاف مقاتل : وكان يرأس

كل فرقة ضابط برتبة دمستق Domesticus وقد أصبح قائد فرقة الاسكلارية ، القائد العام للجيش فى القرن العاشر الميلادى .

أما جيوش الولايات (الثيانا) فكان يرأس كل جيش منها استراتيجوس Sterategus يختار من الطبقة العسكرية ، وكان يتولى حكم الولاية أيضا وبذلك جمع فى يديه بين الشئون العسكرية والمدنية .

وكان جيش كل ولاية ينقسم إلى قسمين أو ثلاثة يعرف كل قسم منها باسم تورما Turma ، أو الكتيبة ، ويعهد بقيادة كل منها إلى قائد يعرف باسم آمر الكتيبة Turmarchai ، والكتيبة تنقسم إلى سرايا Moira . وهذه تنقسم بدورها إلى عشر فصائل ، يعهد بقيادتها إلى رائد يطلق عليه اسم قومس Comes .

وبالإضافة لذلك وجدت قوات أخرى أسندت إليها مهمة الدفاع عن الحدود بما فيها من قلاع وابراج وتحصينات أخرى ، وقد أطلق على هذه القوات اسم Acritai كذلك وجدت فرق من المحالفين Foederati كانت تعسكر فى أقاليم الحدود ، وترافق الامبراطور عند الخروج للغزو .

وكانت التاجماتا أو الجيش المركزى يستخدم أساسا فى الهجوم ، فكان يصاحب الامبراطور أو دمستق القوات الاسكلارية عند القيام بحملة ما ، ثم تلحق به قوات من الولايات والحدود . أما جيوش الولايات الثياتا فكانت تستخدم فى الدفاع شأنها فى ذلك شأن قوات الحدود .

وكانت الجيوش البيزنطية تتكون من الفرسان أولا ثم المشاة وقد انقسم كل منهما إلى قسمين فرق ثقيلة السلاح ، وفرق خفيفة السلاح ، فكان الفارس ذو السلاح الثقيل يلبس خوذة فولاذية ودرعا من الزرد يكسوه من رقبته إلى

فخذيه ، وقفازا من الحديد ، وأحذية من الفولاذ ، كما تميز الضباط بوضع علامة فولاذية على الجبهة . وكان الفارس يحمل عباءة خفيفة ليرتديها فوق سلاحه أيام الصيف ، وعباءة فضفاضة من الصوف لتقيه برد الشتاء ، وكان سلاحه سيفا عريضا وخنجرا ورمحا وقوسا للرماية وجعبة للسهام ، وان كان ممن يقفون فى الصفوف الأولى ويقومون بالهجوم جعلت لحصانه درعا فولاذيا على صدره وعصابات من الفولاذ على جبهته :

أما الفارس ذو الاسلحة الخفيفة فكان عادة من الرماة ويرتدى سترة من الزرد .

أما المشاة ذوو الاسلحة الثقيلة فكانوا يلبسون دروعا من الزرد وخوذا فولاذية ، وكانت أسلحتهم السيف والرمح وفأسا ذات نصل قاطع من ناحية وسن مدببة من الناحية الأخرى . وكان المشاة ذوو الاسلحة الخفيفة يلبسون قميصا طويلا من الزرد إلى الركبة أو دروعا خفيفة وكان سلاحهم السهام والحراب .

هذا ، ولم يزد تعداد الجيش البيزنطى عن مائة وعشرين ألف مقاتل ، منهم ما يقرب من السبعين ألفا كان عليهم واجب القتال فى الجبهة الاسيوية ، وكان الجيش يضم إلى جانب المقاتلين مهندسين متخصصين كان عليهم دراسة جميع العقبات الطبيعية التى يمكن أن يصادفها الجنود فى أرض المعركة والعمل على التغلب عليها ، كما كانت تصاحبه فرقة طبية ملكية : وكان هناك فرقة من الفرسان تابعة لقسم الخدمات الطبية مهمتها حمل الجرحى من ميدان المعركة إلى أطباء الجيش فى الخلف (١) .

---

(١) فيما يتعلق بالجيش البيزنطى ونظمه وأسلحته أنظر المراجع التاليه : =

كان ذلك عن نظام الجيش البيزنطى الذى خاض به أباطرة الدولةالبيزنطية العديد من المعارك وحازوا عن طريقه الكثير من الانتصارات . على أنه بعد وفاة الامبراطور باسيل الثانى فى ١٠٢٥ م ، خلفه على العرش أباطرة ضعفاء ونساء ، وهؤلاء جميعا لم يوجهوا للجيش ما يستحقه من الاهتمام والرعاية ، كما أنهم حاولوا التغلب على الأزمات المالية التى واجهتهم عن طريق تخفيض عدد الجيش ، الذى سار نتيجة لذلك فى طريق الضعف والإنهيار ، حتى بلغ من إهمال أمره أنه حينما تعرضت بعض المناطق على حدود الامبراطورية فى عصر قسطنطين دوقاس (١٠٥٨ — ١٠٦٧) للغزو تقرر إقامة الصلاة العامة ، والتمس الجميع من الله وقوع المعجزات ، وتبين للأباطرة أن شراء السلام من الأعداء ، أقل تكلفة من إعداد الجيوش لقتالهم (١) .

وقدا ستمرت هذه السياسة الخاصة باهمال الجيش ، وفى ساعات الخطر كان الاباطرة يلجأون إلى الاستعانة بالجنود المرتزقة من الجنسيات المختلفة وكان لهذه السياسة خطورتها فان هذه العناصر كان لا يمكن الأطمئنان إلى ولائها التام ، فقد كانت على إستعداد دائماً لخدمة من يدفع الثمن الأعلى ، دون النظر إلى مصلحة أى فريق من المتحاربين ، يضاف لذلك أن بعض هـــذه

= Runciman : Byzantine civilization, pp. 136 — 148.

Guillon (A) : La civilisation Byzantine, Arthand, Pars, 1974, P. 164 - - 172

Brehier (L.) : Les institutions de l,empire byzantin, Editions Albin Michel, Paris, 1970, 271 - 322.

(1) Foord : the Byzantine Empire, London, 1911, P. 319.

العرينى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٢٥ .

العناصر كان يرفض القتال فى بعض الاحيان ، وأثناء اشتعال المعركة ، إذا كانت الامبراطورية تقاتل عدوا يربطها بتلك العناصر صلة الاصل الواحد ، كما حدث أثناء معركة منزيكرت فى ١٠٧١ م حين ألقى الجند المرتزقة من الأتراك الغز فى الجيش البيزنطى بأسلحتهم وإنضموا إلى جيش السلاجقة ، وكان ذلك من أسباب هزيمة الامبراطور رومانوس ديوجينيس فى تلك المعركة .

هذا إلى جانب أن أباطرة هذا العهد ركنوا إلى حياة الدعة والترف ، وإبتعدوا عن ميادين القتال ، وبعد أن كان الأباطرة أمثال باسيل الأول ونقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثانى يقودون الجيوش بأنفسهم فى ساحات القتال ويتحملون مشاق الحرب ، أصبح أباطرة هذا العصر يوكلون مهمة قيادة الجيوش إلى عناصر مرتزقة أيضا .

كان من نتيجة استخدام المرتزقة فى الجيش البيزنطى أن انحطت الروح القومية ، ويقول المؤرخ الاسبانى بنيامين أوف توديلا Benjamin of Tudela الذى زار القسطنطينية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، «ان اليونان يستأجرون جنودا من كل الأمم يطلقون عليهم اسم البرابرة ، ليست لديهم الروح العسكرية ، وهم كالنساء ، غير لائقين للأعمال الحربية» .

حقيقة أن تقاليد ونظم الجيش البيزنطى كانت لا يزال معمولا بها حتى عام ١٢٠٤ ، لكن الروح العسكرية القومية التى صنعت الكتيبة البيزنطية الناجحة التى حققت الانتصارات فى عهود القوة ، كانت قد اختفت (١) .

وقد كان من نتيجة الصراع بين الأسرة الحاكمة فى بيزنطة لمدة ربع قرن

(1) Pears : The Fall of Constantionple, PP. 211 — 212.

سابق على عام السقوط فى ١٢٠٤ أن أصبح الأباطرة عبيدا لجنودهم المرتزقة ، فقد أخذوا فى شراء تحالفهم بعطاءات كبيرة ، وأدى ذلك بالتالى إلى إزدياد قوة هؤلاء المرتزقة وجشعهم . وفى عام ١١٩٥ حين قبض اليكسيوس انجليوس على شقيقه الامبراطور اسحاق ووضعه بالسجن ، أخذ الامبراطور الجديد يغدق بلا حساب على أتباعه من المرتزقة ، وبعد أن فرغت أموال الخزينة الامبراطورية ، لجأ إلى توزيع أملاك الدولة على هذه القوات حتى ينال رضاءهم عنه وحمايتهم له (١) .

وقد بلغ من إنهيار الجيش البيزنطى فى عصر هذا الامبراطور أنه حينما قرر الامبراطور الألمانى هنرى السادس غزو القسطنطينية تحقيقا لأطماعه فيها ، تملك الذعر الامبراطور اليكسيوس الثالث ، وقرر أن يدفع ضريبة سنوية لهنرى عبارة عن مبلغ ضخم من الذهب ، وتحقيقا لذلك فرض اليكسيوس على كافة طبقات الشعب ضريبة الالمان .. German Tax وحينما رفض رجال السناتو ورجال الدين وعامة الشعب دفع هذه الضريبة ، لجأ إلى نهب خزائن الكنائس والذهب والفضة والجوهرات التى حليت بها مقابر الأباطرة الراحلين لكى يستعين بكل ذلك على شراء السلام مع الالمان بدلا من محاربتهم (٢) .

كان هذا هو الحال بالنسبة للجيش البيزنطى فى الوقت الذى تعرضت فيه العاصمة البيزنطية للخطر من جانب الصليبيين ، ولم يكن الاسطول بأحسن حالا ، خاصة إذا علمنا أن البيزنطيين بصفة عامة وفى عصورهم المختلفة كانوا ينظرون للاسطول على أنه مساعد للجيش لا سلاحا قائما بذاته ، ومن ثمة فلم

(1) Pears : The Fall of Constantionple, P. 212.

(2) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, P. 412. Pears : op. cit., P. 213.

يحظ الاسطول قط بنفس الأهمية ولا العناية التى حظى بها الجيش (١) .

وكانت القوة البحرية للامبراطورية البيزنطية فى شرق البحر الأبيض المتوسط فى عصرها الذهبى ، أى النصف الأول من عهد الأسرة المقدونية ، تتكون من أسطول حربى دائم يضم اسطولا مركزيا امبراطوريا ، وثلاثةاساطيل أقليمية .

وكان الاسطول الامبراطورى يتخذ مركزه عند القسطنطينية وترابط بعض قطع منه عند جزيرة متلين بقصد حراسة مضيق الهللسبونت ، وقد أصبحت هذه الجزيرة أكثر القواعد البحرية أهمية ، إذكانت عائقا فى وجه نشاط المجاهدين المسلمين من كريت وبحر ايجة .

وكان يتولى قيادةالأسطول الامبراطورىادميرال عرف باسم Drongarius of the Ploimen كان بمثابة القائد العام للبحرية .

أما الثلاثة الأساطيل الأقليمية ، فكانت أسطول ثيم كبير هايوت ، على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى المواجه للبحر الأبيض المتوسط ومهمته حماية الشواطىء الجنوبية للاناضول ضد غارات القوات الاسلامية القادمة من طرسوس والشام .

واسطول ثيم بحر ايجة ، ومهمته حماية الشواطىء الأوربية لهذا البحر : واسطول ثيم ساموس ويتولى حماية الشواطىء الاسيوية لبحر ايجة ضد غارات مسلمى كريت .

---

(1) Runciman : Byzantine civilization, PP. 149 — 155.
لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤٥ .

وقد وجدت إلى جانب هذه الاساطيل قوات بحرية أقل أهمية من بعض الثغور مثل هيلاس والبلوبونيز وكيفالونيا وبامبلاجونيا .

وقد احتفظ كل اسطول أقليمى بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والبحارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى ، وذلك على نفقة الاقاليم التى ترابط فيها هذه الاساطيل ، وفى أوقات الحرب كان على الثغور البحرية التى تقع فى مناطقها أن تمدها بكل ما يلزمها من سفن النقل والمؤن :

وكانت سفن الاسطول على أنواع منها سفن تدعى (درومونة) وهى سفينة ذات صفين من المجاديف ، وكانت تستخدم لحمل المقاتلين وكانت حمولتها تبلغ الثلثمائة مقاتل . و (البامفيليه) وهى سفينة سريعة الحركة غالبا ما كان قائد الأسطول يتخذ منها سفينته الخاصة . و (الغليون) Galley وبها صفوف مفردة من المجاديف . وكانت توضع فى مقدمة السفن آلا ت لقذف النار الاغريقية كما كان البحارة يجهزون بقنابل يدوية تحتوى على نفس تلك المادة الكيماوية القاتلة الشديدة الانفجار .

وقد وجه البزنطيون إلى علم العمليات البحرية اهتماما كبيرا فدرس القادة البحريون الأوصاف الطبيعية للساحل والجزر وخصائص الرياح ، وكانت الاشارات تتم عن طريق الرايات واستخدام الأضواء ليلا ، كما كانوايفضلون المناوشات المنفصلة على المعارك البحرية الفاصلة . أما حين يضطرون لخوض معركة وجها لوجه مع العدو فأنهم يفضلون حينئذ تنظيم الأسطول على شكل نصف دائرة :

هذا وقد لقى السلاح البحرى البيزنطى عناية كبيرة وذلك فى أواسط القرن العاشر الميلادى ، أثناء حكم الامبراطور رومانوس ليكابينوس (٩١٩— ٩٤٤ م) الذى كان قائدا للاسطول البيزنطى قبل أن يثب إلى العرش الامبراطورى ، ومن ثمة فقد اهتم بالقوة البحرية للامبراطورية ،وأخذ فى بناء سفن حربية أكثر ضخامة وأعظم قوة عن ذى قبل ، وبذلك تكون الاسطول البيزنطى الذى أصبح أداة فعالة فى يد نقفور فوقاس . ويمكن ملاحظة ذلك من الوصف الذى جاء لبعض سفن الاسطول الذى صاحب نقفور فى حملته على كريت الاسلامية فى يوليو ٩٦٠ ، فقد بلغت بعض السفن الحربية ان كان عدد المجدفين بها يبلغ ٢٥٠ بحارا ، وكان للسفينة الواحدة أربعة طبقات للمجاديف .

على أن الاسطول البيزنطى لم يلبث أن لقى إهمالا نسبيا وذلك فى الغالب ، لخوف الاباطرة من القوة المفرطة التى قد يبلغها قائد الأسطول حيث وجد رومانوس ليكابينوس فى أمرة الأسطول خير وسيلة يرقى بها إلى العرش .

يضاف لذلك عدم تعرض الامبراطورية لاخطار بحرية كثيرة من جانب القوى المنافسة لها مما جعل الابقاء على أسطول كبير ذى قوة فعالة يبدو اسرافا لا مبرر له فى نظر بعض الاباطرة (١) .

---

(١) بخصوص الأسطول البيزنطى فى الأزمنة التاريخية المختلفة ، أنظر المراجع التالية :

Runciman : Byzantine Civilization, PP. 149 — 155.

Guillon : La Civilization Byzantine pp. 172 — 175.

Brehier : Les institutions de l'empire byzantine, pp, 323 — 342.

لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ٢٤٢ — ٢٤٥ .

بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة د . حسين مؤنس ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

حقيقة ان البيزنطيين حافظوا على وجود الاسطول ، غير أنه أصبح على درجة من الضعف لا تسمح له بإحراز نصر بحرى على الاعداء ، وحين تعرضت الامبراطورية لخطر النورمان البحرى فى عهد اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ — ١١١٨) لجأ هذا الامبراطور إلى الاستعانة بأسطول البندقية لدفع هذا الخطر ، وتمكن هذا الاسطول من تحطيم أسطول النورمان فى عام ١٠٨٥ م(١).

وقد سار الاباطرة اللاحقون لاليكسيوس على نفس تلك السياسة الخاصة بالاستعانة بأساطيل المدن البحرية الايطالية ، وخاصة البندقية ، للدفاع عن سواحل الامبراطورية والقتال البحرى نيابة عن البيزنطيين ، حينما تستدعى الحاجة ذلك . واستمر الحال على هذا النحو حتى عام ١٢٠٤ حين وقع الهجوم البحرى على العاصمة البيزنطية وكان هذا الهجوم بأسطول البنادقة أنفسهم ، أى أن الاسطول الذى تولى الدفاع عن العاصمة البيزنطية فى الفترة السابقة تحول الآن إلى خطر يهددها .

فى ذلك الوقت كان الادميرال ميخائيل سترو فنوس Michael Struphnos شقيق زوجة الامبراطور اليكسيوس الثالث متوليا شئون الاسطول البيزنطى وقد بلغ به الاهمال والجشع وعدم تقدير المسئولية ، إلى درجة أنه باع ذخيرة الاسطول كلها ، وبذلك أصبح الاسطول لا يستطيع القيام بأى دور فعال فى مقاومة الحصار البحرى للعاصمة البيزنطية من جانب أسطول البنادقة فى عام ١٢٠٤ م (٢) .

كان ذلك فيما يتعلق بضعف القوة العسكرية البيزنطية ، وقد كانت الآثار

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. P. 358.

(2) Pears : The Fall oF Constantinople, p. 211.

المترتبة على ذلك خطيرة ، فحين تعرضت العاصمة البيزنطية للهجوم من جانب البنادقة والصليبيين فى عام ١٢٠٤ ، لم يتهيأ للعاصمة وجود الجيش أو الاسطول الكفء الذى يستطيع أن يضطلع بواجبه فى الدفاع عنها وإبعاد هذا الخطر الذى يهددها .

يضاف لذلك عامل آخر يتعلق بمسئولية البيزنطيين عما لحق بعاصمتهم على أيدى الحملة الصليبية الرابعة ، وهذا العامل خاص بإنحلال الجهاز الادارى فى الدولة نتيجة لعدم كفاءة الاباطرة الذين تولوا العرش البيزنطى فى هذا العصر . ذلك أن عهد الاباطرة العظاء أمثال نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثانى ، كان قد إنتهى وتولى تصريف شئون الحكم أباطرة لا يتمتعون بأية كفاءة إدارية . ويكفى لإظهار ذلك عمل مقارنة بين أحد الأباطرة العظاء مثل باسيل الثانى وأباطرة عائلة انجيلوس .

يصف المؤرخ البيزنطى ميخائيل بسيللوس ، الذى كان قريب العهد بعصر الامبراطور باسيل الثانى هذا الامبراطور بقوله : أنه إمتاز بالنشاط الوافر والصلابة ؛ كما إشتهر بمهارته العسكرية ، فكان فارسا شجاعا ملما بكل صغيرة وكبيرة فى شئون الحرب وتنظيم الجيوش ، كما إشتهر بالحزم وشدة المراس فى القتال وحرصه على أن يلتزم جنوده وقادة جيشه بتنفيذ أوامره حرفيا ، وكان ينزل أشد العقاب بمن يحيد عن تعليماته حتى وأن حقق للامبراطورية الانتصار عن هذا الطريق .

وقد عرف عن باسيل خروجه على القاعدة التى جرى عليها الأباطرة الذين سبقوه ، فى تحديد أوقات معينة لحملاتهم تقع عادة بين منتصف الربيع ونهاية الصيف ، ثم يعودون للعاصمة لقضاء فصل الشتاء بها ، فأنه لم يلتزم

بهذه القاعدة ، وإنما كانت عودته إلى العاصمة مرتبطة بإنجاز عمله وتحقيق الغرض الذى خرج من أجله . هذا ولم تقل كفاءة الامبراطور باسيل ومهارته الإدارية وتصريفه لشئون الدولة عن مهارته فى ميدان الحرب والقتال (١) .

أما يحيى الانطاكى – المؤرخ المسيحى الذى عاصره – فقدأجمل صفات الامبراطور باسيل الثانى فى عبارة موجزة وأن كانت تحوى الكثير من المعانى قال «أنه لم يزل فى جميع أيام ملكه مقتصرا فى مطعمه ومشربه وزيه لازما الحمية طوال حياته ، ناظرا فى سائر أمور مملكته ما جل منها وما صغر ، وخلف من المال ستة آلاف قنطار مسكوكة ، وكان جميع ما وجد من المال حين احتوى على الملك أربعة قناطير لا غير» (٢) .

فإذا انتقلنا إلى اباطرة أسرة انجيلوس ، وجدنا أن أولهم وهو اسحاق(١١٨٥ – ١١٩٥) كان من النوع الذى لا يهتم كثيرا بشئون الدولة ، وقد أطلق لأتباعه العنان وسمح لهم بالتدخل فى تلك الشئون دون أى مراقبة منه أو إهتمام بما يجرى . وقد أصبح من الأمور العادية أن يتحدث الناس عن الموظفين الفاسدين فى العاصمة والولايات ، وفظاعة جباة الضرائب ، وأخبارالرشاوى وبيع الوظائف ، ويقول المؤرخ البيزنطى نقيتاس خونياتيس «ان الامبراطور اسحاق الثانى يبيع وظائف الدولة كما تباع الخضار فى السوق» .

وقد بلغ من حب هذا الأمبراطورللمال وإستهتاره بحقوق رعاياه أنه فرض على المقاطعات ضريبة خاصة لتغطية نفقات زواجه من شقيقة ملك هنغاريا ،

---

(1) Psellus : Chronographie, Traduit du grec par Renauld, Paris, 1926, Tome 1, pp. 20 — 22.

(٢) يحيى الأنطاكى : صلة كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ ، ص ٢٤٩ .

وقد احتفل بهذا الزواج بأبهة وعظمة نادرتى المثال ، وكان ينظـر إلى الامبراطورية التى أوقعتها الاقدار فى قبضته نظرته إلى مزرعة خاصة يحق له استغلالها واستثمارها لصالحه وصالح أسرته (١) .

أما مائدته ، فإنها كانت يوميا مثالا للاسراف والبذخ ويصفهاخونياتيس بقوله أنها عبارة عن «غابات من الطيور وبحار من الاسماك ، وأنهار من الخمر وجبال من الخبز» (٢) .

وكان يرتدى فى كل يوم حلة جديدة ، ويوما بعد يوم يذهب لعمل ما نطلق عليه فى وقتنا الحاضر اسم «الحمام التركى» مستعملا فيه العطور الاخاذة ، ويخرج منه خروج العروس ، ويمشى مختالا كالطاؤوس . كما أنه كان مولعا بالخمر والنساء ، وأحاط نفسه بالمغنيين والمهرجين .

وهكذا فاقت نفقات البلاط كل الحدود ، فى الوقت الذى كان دخل الخزينة الامبراطورية فى نقص مستمر ، وبالتالى لم يعد هناك موازنة بين الدخل والنفقات ، ولكى يتغلب الامبراطور على ذلك لجأ إلى التردى فى إبتزاز الشعب عن طريق الضرائب ، والغش فى سك العملة ، وإلى نهب الكنائس ، وحتى الاوانى المقدسة نقلت من الكنائس إلى القصر لاستعمال الامبراطور وحاشيته ، كما جردت الأناجيل من الأحجار الكريمة والحلى النفسية التى استخدمت فى تجليدها (٣) .

أما شقيقه اليكسيوس الثالث (١١٩٥ - ١٢٠٣) فلم يكن بأكثر كفاءة

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. pp. 401 — 402.

(2) Chomates (N) : Historia, ed Bonn, p. 579.

(1) Pears : The Fall of Constantinople, pp. 205 — 206.

منه ، فقد كان أبعد ما يكون عن الامبراطور الصالح لتصريف الشئون الإدارية للامبراطورية ، ويمكن ملاحظة ذلك من هذه الكلمات التى وصفه بها خونياتيس إذ قال : «ان أية ورقة تقدم للامبراطور من أجل توقيعه كان يوقعها مباشرة لا يبالى إذا كانت هذه الورقة تشتمل على مجموعة من الكلمات الفارغة ، أو ملتمسا يسأل الابحار فى الأرض ، أو الفلاحة فى البحر ، أونقل الجبال إلى وسط المحيطات ،أو رفع جبل آتوس من مكانه ووضعه فوق قمة جبل اوليمبوس» (١) .

وهكذا فقد ساءت الأمور أكثر من السابق ، وحل الجوع والخراب بسكان الريف نظراً لازدياد الضرائب عليهم ، وكثيرا ما كانت نفس الضريبة تجبى ثلاث مرات فى العام الواحد ، وذلك لمواجهة نفقات البلاط ودفع الأموال للأعداء لشراء السلام معهم . وقد وجد الأباطرة أن هذه الطريقة أسهل واجدى من خوض معارك وحروب يعرفون سلفا أنهم لن يكسبوها . هذا فى الوقت الذى كانت ولايات الامبراطورية معرضة لهجمات الأعداء وشواطئها مفتوحة أمام غارات القراصنة ورغم أن مساحة الأرض الخاضعة للدولة كانت تتقلص بإستمرار لما يستولى عليه الأعداء منها ، فان عدد المقاطعات التى قسمت إليها الامبراطورية قد تضاعف فى القرن الثانى عشر عما كان عليه أثناء حكم الأسرة المقدونية ، وأصبحت الامبراطورية مشكلة من وحدات إدارية صغيرة لا تشابه ما كانت عليه فى الماضى إلا فى الاسم فقط ، وقد أدى نمو الاقطاعات الخاصة إلى إزدياد نفوذ كبار ملاك الأراضى على حساب نفوذ رجال الحكومة فى المقاطعات ، حتى أصبح المالك

---

(1) Chobiates : Historia, pp. 599 — 600.

الاقطاعى هو الحاكم الإدارى الفعلى فى مقاطعته ، وأدى ذلك إلى ظهور نوع من الامارات المستقلة عن الحكم المركزى التى يحكمها أكبر مالك للأرض فيها (١) ؛

وهكذا أصبحت الامبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة تعانى من إنحلال جهازها الإدارى ، وإنتشر الشغب فى أنحائها سواء فى الولايات أو فى العاصمة نفسها . وقد زاد من تفشى هذا الشغب المعارك الدامية التى كثيرا ما قامت فى شوارع العاصمة بين الأجانب والأهالى ، وبين الاجانب بعضهم والبعض الآخر مثل المعارك التى غالبا ما كانت تنشب بين البنادقة والبيازنة (٢) .

على أن أهم الأخطاء التى ارتكبها البيزنطيون وتسببوا بها فى العمل على انحراف الحملة الصليبية الرابعة ضد عاصمتهم كان الصراع الذى قام بينهم من أجل الاستحواذ على العرش البيزنطى .

ويرجع ذلك الصراع إلى أواخر عهد الأسرة الكومنينية ، فقد تولى العرش الامبراطور مانويل كومنينوس (١١٤٢ — ١١٨٠) الذى كان متأثرا إلى حد بعيد بأسلوب الفروسية الغربية ، وأحب العادات الغربية وأدخلها فى تقاليد البلاط البيزنطى ، كما أنه تزوج من اميرتين غربيتين هما برتا الالمانية ، ومارى الفرنسية «التى فاقت أفروديت بعينيها الساحرتين ، وشعرها الذهبى ، وابتسامتها العذبة» (٣) الأمر الذى أضفى على قصره مظهراً غربياً وجعله يختلف عما كان عليه الحال زمن أسلافه ، بعد أن ساد فيه جو من المرح والتمتع بالحياة والبعد عن التقاليد ، وأقيمت المبارزات بين الفرسان على النحو الذى كان معروفا

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 402.
(2) Vasiliev : op. cit. p. 349.
(3) Choniates : Historia, p. 15.

فى الغرب الأوروبى فى تلك الفترة من العصور الوسطى ، واشترك الامبراطور مانويل بنفسه فى هذه المبارزات ، الأمر الذى أثار دهشة رعاياه البيزنطيين الذين لم يألفوا مثل تلك التصرفات من أباطرتهم السابقين ، وقد أدى هـذا الاتجاه نحو الغرب إلى إنفتاح حدود الامبراطورية البيزنطية أمام اللاتين الغربيين ، الذين تدفقوا إليها وزادت أعدادهم داخل العاصمة وقد تقلد عدد كبير منهم بعض المناصب العليا فى الدولة مما أدى إلى قلق وتذمر العناصر اليونانية داخل الامبراطورية (١) .

وبعد وفاة الامبراطور مانويل فى ١١٨٠ خلفه على العرش ابنه اليكسيوس الثانى الذى كان فى الثانية عشر من عمره فتولت الوصاية على حسب التقاليد المعمول بها والدته مارى الانطاكية ، اللاتينية الأصل ، وقد وقع اختيارها على ابن أخ الامبراطور الراحل ويدعى اليكسيوس وكان يحمل لقب Protosebastos (٢) ليساعدها فى تصريف شئون الامبراطورية ، نظراً لما كان يعرف عنه من تعاطف مع اللاتين وتأييد لسياسة التعاون معهم ، ولم يكن هذا اختياراً موفقا من جانب الامبراطورة مارى ، إذ أدى ذلك إلى أثارة المشاكل والانتقادات لسلوكها بين أفراد الأسرة الحاكمة من آل كومنين ، وأفراد الشعب على حد سواء (٣) .

---

(1) Ostrogorsky : op. cit., p. 380.

(٢) معنى هذا اللقب (الجليل الأول) وهو لقب شرف دون لقب قيصر Caesar ، وكان يسمح لحاملى هذا اللقب وزوجاتهم أن يتناولوا الطعام على المائدة الامبراطورية . أنظر عن ذلك :

Runciman : Byzantine Civilization, p. 84.

(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 394.

Hussey; Tht later macedonians, The comneni, and The Angeli, 1025—1204, in C.M.H. ed Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, part 1, p.24.

يضاف لذلك أنه كان من الطبيعى أن تعمل مارى ويؤيدها اليكسيوس على التعصب لأبناء جنسها اللاتين مما زاد فى كراهية البيزنطيين للفئة الحاكمة وتطلعهم إلى التخلص منها ، وقد إنحصرت هذه الكراهية بشكل خاص نحو عنصرين منهم هما : التجار الإيطاليون الذين أثروا على حساب الشعب البيزنطى والعنصر الآخر هو الجنود اللاتين المرتزقة الذين اعتمدت عليهم الامبراطورة مارى ومنحتهم ثقتها ودعمها . وقد حاول أفراد أسرة كومنين أن يعملوا على التخلص من هذا الحكم اللاتينى عن طريق التخلص من مارى وصديقهـا اليكسيوس ، ونتيجة لذلك إندلعت فتنة داخلية فى مايو ١١٨١ . ولجأت مارى إلى كنيسة آيا صوفيا للاحتماء بها ، وإنتهى الأمر بفشل هذه الفتنة ، لأنه لم يتهيأ لها زعيم له من الصفات ما يجعله أهلا للنجاح من ناحية ، ومن ناحية أخرى لتدخل البطريرك ثيودوسيوس الذى عمل على إقرار الصلح بين الطرفين ووبخ مارى واليكسيوس على سلوكهما (١) .

عند ذلك بدأ اسم اندرونيكوس كومنين ، يلمع فى سماء الأحداث الجارية وقتذاك ، ويوضح المؤرخ البيزنطى نقيتاس خونياتيس الموقف فى هذه الكلمات « وقبل كل شىء فأننى سوف أتذكر كيف أنه فى وقت الانزعاج والألم فان الامبراطورية الرومانية ، لجأت إلى عزيزها السابق اندرونيكوس العظيم ، لتحطيم إستبداد اللاتين الجائر الذين مثل الاعشاب الطفيلية فرضوا أنفسهم على الفرع الصغير للامبراطورية . جاء سريعا ، ولم يحضر معه أعداد كبيرة من الاتباع أو المشاه أو الفرسان ، ولكنه تسلح فقط بالعدالة ، سائرا دون تردد نحو المدينة الحبيبة ، وأول ما منحه للعاصمة كان

---

(1) Brehier : Byzance, pp. 342 — 343.
Ostrogorsky : op. cit., p. 395.

تخليصها من الطغاه اللاتين المتعجرفين ، وتنظيف الامبراطورية من خليط البرابرة بدافع من حبه الطاهر» .

أما عن اندرونيكوس هذا الذى، تركزت حوله آمال البيزنطيين فى ذلك الوقت العصيب ، فهو ابن عم الامبراطور الراحل مانويل كومنينوس ، ويصفه المؤرخون بأنه كان رائع الصفات ، ذا ثقافة عالية . ذكيا فصيحا ، شجاعا فى ميدان الحرب . على دراية واسعة بالشئون الإدارية للامبراطورية ، وإن كان مما عرف عنه أيضا إسرافه فى المغامرات العاطفية التى كانت مثار أحاديث الناس فى بيزنطة .

وكان التنافس بين اندرونيكوس ومانويل قديما ، فقد وقف الأول من الثانى موقف التحدى والمعارضة لسياسته الخاصة بمحاولات التقرب من الغرب كما كان عدوا للطبقة الارستقراطية الاقطاعية . وقد كان اندروتيكوس يطمع فى العرش ، لذلك تآمر ضد سلامة ابن عمه الامبراطور ، وكان من نتيجة هذا الخلاف كله أن اضطر اندرونيكوس أن يعيش حياة التشرد والترحال والهرب الدائم من وجه الامبراطور ، بعد أن سجنه فى القصر لمدة تسع سنوات وقد لجأ إلى أحد الأمراء الروس ومكث عنده فترة من الزمن ، ثم عادللعاصمة ونجح فى كسب ود الامبراطور مانويل ، الذى أكرمه ومنحه الكثير من العطايا ، ثم أرسله إلى إقليم قيليقية لجمع خراجه وخراج جزيرة قبرص وقد أنجز اندرونيكوس مهمته بسرعة وبدلا من العودة للعاصمة توجه إلى انطاكية وخطب فيليبا Philippa شقيقة الامبراطورة مارى زوجة مانويل ، غير أنه تركها دون سبب ظاهر ، وذهب إلى فلسطين فى ١١٦٧ ، حيث قام بمغامرات عاطفية مع ثيودورا أرملة الملك بلدوين الثالث التى كانت تعيش فى عكا بعد وفاة زوجها ، وقد ذهب بها إلى بلاد المسلمين ، حيث أنجبت

له طفلا ، ثم تركا هذه البلاد ، وأتجها إلى جورجيا وتحالف اندرونيكوس مع الأتراك ضد الامبراطور مانويل على أنه لم يلبث أن عاد إلى العاصمة البيزنطية تائبا متراميا عند قدمى الامبراطور ، الذى عينه حاكما لأقليم بونطس Pontus ورغم تقدمه فى العمر بعد أن تجاوز الستين إلا أنه ظل يحلم بالحكم (١) .

حين علم اندرونيكوس بما عليه الوضع فى العاصمة ، جمع قواته القليلة العدد وأتخذ طريقه إلى القسطنطينية ولم يلق مقاومة تذكر ، بل أنه لقى الكثير من التأييد وإنضم إليه كثير من المؤيدين خاصة بعد أن أعلنها حربا قومية دينية بأسم اليونان ، والارثوذكسية . وفى ربيع ١١٨٢ م وصل بقواته وبمن إنضم إليه أثناء زحفه إلى خلقيدونية وعسكر فيها . وقد حاول اليكسيوس المسيطر على الأمور فى العاصمة أن يمنع تقدم اندرونيكوس عن طريق إغلاق البوسفور فى وجهه معتمدا فى ذلك على الأسطول الذى كان أغلب رجاله من اللاتين . غير ان قائد الأسطول سرعان ما أتخذ جانب اندرونيكوس وإنضم إليه ، وفى نفس الوقت إندلعت فتنة خطيرة فى القسطنطينية فى سبتمبر ١١٨٢ وقبض الأهالى على البروتوسباستوس اليكسيوس وسملوا عينيه وأودعوه بالسجن ، وقاموا بمهاجمة بيوت اللاتين فى العاصمة ونهبوها وأحرقوا متاجرهم ، واعملوا فيهم يد الذبح ، وكان القتل نصيب كل لاتينى لم يستطع الفرار قبل ان تصل إليه يد الأهالى (٢) .

---

(1) Kinnamos (Y) : Deeds of John and Manual Comnenus, Translated to English by Chales M. Brand, Columbia University Press, New York, 1976, Book V, pp. 175 — 176, Book VI, pp. 188 — 189.
Hussey : op. cit., p. 244.
Ostrogorsky : op. cit., p. 395.

(2) Hussey : op. cit., p. 244.

وهكذا شق اندرونيكوس طريقه إلى العاصمة وسط مذبحة مروعة سالت فيها دماء اللاتــين ، وكانت هذه المذبحة تنفيثا عن كل ما عاناه البيزنطيون من عجرفة وتسلط هذا العنصر على الحكم .

وقد أعلن اندرونيكوس أنه انما جاء ليخلص الامبراطور الشرعى القاصر اليكسيوس الثانى من شرور أمه وآثامها ومن أجل ذلك أجبر الأمبراطــور الصغير على أن يوقع بيده على وثيقة إعدام والدته الامبراطورة مارى وشقيقته مارى ابنة مانويل الأول (١) ، وقد لقى حتفه معهما عدد كبير من اللاتــين الذين اعتمدت عليهم الامبراطورةأثناء فترة وصايتها على العرش البيزنطى(٢)

وفى سبتمبر عام ١١٨٣ م توج اندرونيكوس كامبراطور مشارك فى الحكم للامبراطور اليكسيوس الثانى ، ولم يمضى شهران على تتويجه حتى تخلص من الامبراطور الشرعى بالقتل ، ولكى يضفى على حكمه شرعية أكثر تزوج من أرملة الامبراطور الصغير وكانت تدعى آجنى — آنا Anna-Agnes — وهى ابنة لويس السابع ملك فرنسا — وكانت آنذاك فى الثانية عشر من عمرها أما اندرونيكوس فكان فى الثالثة والستين (٣) .

بعد ان تربع اندرونيكوس على العرش البيزنطى أخذ على عاتقه القيـام بالعديد من الاصلاحات الإدارية فى الدولة وكان رائده فى اصلاحاته تلك أنه «ليس هناك اعوجاج لا يستطيع الامبراطور تقويمه ، وليس هناك ظــلم لا يستطيع الامبراطور دفعه» (٤) وينقسم عهد اليكسيوس إلى مرحلتين ، المرحلة

(1) Hussey : op. cit., II, p. 244.

(2) Ostrogorosky : op. cit., pp. 395 — 396.

(3) Hussey : op. cit., p. 244.

(4) Ostrogorsky : pop. cit., p. 396.

Vasiliev : op. cit., p. 433.

الأولى : كان يقوم فيها باصلاح الفساد وإنزال العقاب بمسببيه ، وأماالمرحلة الثانية : فقد تحول فيها عمله فى الاصلاح إلى تعطش للدماء ولجوءه إلى العنف بدون مبرر . بدأ اندرونيكوس بنشاط إصلاحى كبير ، فزاد رواتبالموظفين حتى يحميهم من إغراء الرشاوى ، وعين قضاة إشتهروا بالسمعة الحسنة ، كما قام بتخفيف أعباء الضرائب وانزل عقابه بمن لا يلتزم الأمانة من جباتها ، والذين يحققون مكاسب شخصية عن طريق إبتزاز الفلاحين ، وكان لذلك أثره فى تحسين الأوضاع فى مقاطعات الامبراطورية ، وجعل الفلاحين يشعرون بالأمان والراحة اللذين حرما منهما زمنا طويلا ، ويقول نقيتاس خونياتيس : «أن الفلاح الذى كان يعطى مالقيصر لقيصر ، كان لا يمس بأى سوء ، وكان لا يحرم ، كما كان الحال من قبل ، من آخر قميص على جسده ، ولا يعذب حتى الموت ، لأنه كان لاسم اندرونيكوس فعل السحر فى إبعاد جباةالضرائب الجشعين عن الفلاحين الضعفاء» . ونتيجة لذلك زادت شعبية اندرونيكوس وألف الشعب أشعارا له يمجدون أعماله ويتغنون بها .

ومن أمثلة ذلك ما قاله ميخائيل اكوميناتوس ممجدا الامبراطور : «منذ زمن بعيد ، ونحن مؤمنون بأنك لطيف مع الفقير ، مرعب الجشع ، لأنك حامى الضعيف ، وعدو للمعتدين ، لأنك لا ترغب فى أن يميل ميزان العدالة يمينا أو يسارا ، ولأنك صاحب الأيدى الطاهرة التى لم تتلوث بالرشاوى قط» .

على أنه بمرور الوقت أخذ عداء اندرونيكوس للطبقة الارستقراطية يزداد عنفا وقد حارب اندرونيكوس كل من ينتمى إلى هذه الطبقة سواء بالمولد أو بالثروة . وتحولت مطاردته لهذه الطبقة إلى مذبحة جماعية ، مما أدى إلى فرار كثيرين منهم إلى إيطاليا ، وهناك حاولوا اشعال نيران العداء بين الإيطاليين وبيزنطة ، كما أن الجمهوريات التجارية الإيطالية التى قاستالكثير

من جراء خسائرها وخصوصا خلال مذبحة عام ١١٨٢ التهب شعور كراهيتها للبيزنطيين وحقدها عليهم (١) .

وقد استغل حاكم صقلية وليم الثانى هذه الظروف المضطربة فى بيزنطة وجهز حملة ضدها فى ١١٨٥ وكان هدفه من هذه الحملة الانتقام لمذبحة عام ١١٨٢ ، وكذلك الاستحواذ على العرش البيزنطى ، وقد استولى وليم الثانى على دورازو Dorazzo ثم اتخذ النورمان طريق Via Egnatia وساروا نحو سالونيك ، وحاصروها برا وبحرا لمدة عشرة أيام وفى اغسطس عام ١١٨٥ سقطت هذه المدينة الهامة فى أيديهم ، فتعرضت للنهب والتخريب واجرى النورمان بها مذبحة مروعة إنتقاما لمذبحة عام ١١٨٢ ، وبعد أن مكث النورمان عدة أيام ، إتخذوا طريقهم نحو القسطنطينية .

عندما وصلت انباء استيلاء النورمان على سالونيك واقترب قواتهم من العاصمة البيزنطية ، ثار الأهالى على الامبراطور اندرونيكوس الذى لم يتخذ الاجراءات اللازمة لمقاومة الأعداء، وفى الوقت الذى كان اندرونيكوس خارج العاصمة يقوم برحلة لهو فى جزر الأمراء القريبة منها، إندلعت فتنة خطيرة فى العاصمة فى ١٢ سبتمبر ١١٨٥ تزعمها أحد أفراد الطبقة الارستقراطية التى طالما تعرضت لنقمة اندرونيكوس وكان هذا الشخص هو اسحاق انجيلوس الذى استولى على القصر الامبراطورى واعتلى العرش ، وحين عاد اندرونيكوس إلى العاصمة دفع به اسحاق إلى الجماهير الثائرة فمزقه أربا (٢) .

---

(1) Vasiliev : op. cit., Vol. II, pp. 437 – 438.

(2) Hussey : op. cit., II, p. 438.
Vasiliev : op. cit., Vol. II, p. 438.

لم ينتهى الصراع الداخلى من أجل الاستحواذ على العرش بإنتهاء الأسرة الكومنينية فى ١١٧٥ ، وإنما استمر كذلك وبشكل أكثر خطورة فى عهد أسرة انجيلوس ، ففى سنة ١١٩٥ قام اليكسيوس انجيلوس وخلع شقيقـــه الامبراطور اسحاق وسمل عينيه وقبض عليه هو وابنه الصغـــير الذى يدعى اليكسيوس أيضا ، وسجنهما ، واعتلى العرش ، ولم يلبث ان فر الابـــن اليكسيوس على ظهر سفينة بيزيه فى نهاية عام ١٢٠١ م ، ولجأ إلى الغـرب الأوروبى طالبا مساعدة اللاتين ضـــد عمه الذى اغتصب العرش من والده(١)

وهكذا تطور الصراع الداخلى حـــول العرش بشكل أدى إلى إستعانة البيزنطيين أنفسهم بالغرب اللاتينى ، وبذلك مهدوا الطريق لأسقاط عاصمتهم

وصل الأمير اليكسيوس انجيلوس إلى صقلية ومنها إلى روما ، حيـث التمس مقابلة البابا اينوسنت الثالث ، ومثل أمام البابا والكرادلة حيث شـرح للجميع مشكلته وطلب تأييد البابا ومعاونته له من أجل إستعادة عرش بيزنطة.

على أن هذه المقابلة لم تحقق للأمير اليكسيوس ماكان يأمل فيه، وكل ما فعله البابا اينوسنت أنه زوده بالنصح والإرشاد ، ويبدو أن البابا حاول أن يثنيه عن عزمه على الالتجاء للقوة من أجل إسترداد حقه ، فأنسحب من أمام البابا عازما على التوجه إلى فيليب السوابى ملك ألمانيا ، الذى كان متزوجا من الأميرة البيزنطية ايرين انجيلوس ، ابنة اسحاق وشقيقة الأمير اليكسيوس .

وقد أوضح البابا اينوسنت هذا الأمر فى خطابه إلى الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس فى ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ بقوله : «.. أن اليكسيوس المذكور ،

---

(1) Choniates : Historia, pp. 710 — 712.
Runciman : A histroy of Crusades, Vol. 3, p. 112.

حينما جاء إلى حضرتنا ، فيما مضى ، مثل إمامنا وإمام أخواننا ، مع كثير من النبلاء الرومان ، وقد تقدم بشكوى خطيرة يؤكد أنك قبضت على والده ظلما وبدون حق الحقت به العمى ، وسجنت كلاهما لمدة طويلة . ولأنه لايستطيع أن يلتمس العون من أحد اسمى منا ، ولأننا مثل الرسول ، مديونون للغبي مثل العاقل ، كان لابد أن نحقق له العدالة ».

وحينما اجبناه ، طبقاً لما نراه صالحا ، انسحب من عندنا متوجها بخطى سريعة إلى فيليب – زوج شقيقته – المذكور » آنفا (١) .

وفى طريقه إلى المانيا ، مر الأمير اليكسيوس ، بمدينة فيرونا فى لمبارديا ، وهناك علم بوجود جيش صليبي كبير مجتمع فى البندقية ، فى طريقه إلى الشرق لأسترداد الأراضى المقدسة من يد المسلمين ، وهنا راقته فكرة الاستعانة بهذا الجيش الصليبي من أجل مساعدته فى استرجاع العرش البيزنطى .

فقد روى مؤرخ الحملة فيلهاردوين ، أنه أثناء مرور اليكسيوس بمدينة فيرونا ، أوضح له أعوانه المرافقون له ، والذين سبق أن يسروا له سبيل الفرار من سجنه ، أن هناك جيش من الصليبيين مجتمع فى البندقية ، وأوحوا إليه بفكرة الاستعانة به فى استعادة ملك أبيه فقالوا له : «مولانا ، هنا فى البندقية ، القريبة منا ، جيش مؤلف من أفضل وأشجع العناصر والفرسان فى العالم ، وهم ذاهبون إلى الأراضى المقدسة ، استنجد بهم من أجل مساعدتك ، أنت ووالدك الذى ابعد عن سلطانه قهرا ، وإذا رغبوا فى مساعدتك فأنهم سيبذلون

---

(1) Innocent III : Epistolae, in Patrologia Latina ed. Paris, 1855, Vol. CCXIV 1123 — 1124.

لك النصح والأرشاد ، ربما أخذتهم الشفقة على حالك » (١) .

وقد أعجب الأمير اليكسيوس بالفكرة ورحب بها وبالفعل أرسل رسلا من أتباعه إلى الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات قائد الحملة وللبارونات الآخرين ، وبعد أن استمع هؤلاء جميعا لرسل الأمير البيزنطى ، وماعرضوه عليهم خاصا بمساعدتهم لأليكسيوس فى إستعادة العرش البيزنطى ، أجابوا على هؤلاء الرسل بقولهم : «لقد فهمنا جيدا ، ما ذكر تموهلنا ، وسوف نرسل رسولا من طرفنا مع الأمير ، إلى الملك فيليب ، حيث هو ذاهب اليه ، وإذا الأمير رغب فى مساعدتنا فى إستعادة الأراضى المقدسة ، فأننا سوف نساعده فى استرداد عرشه ، لأننا نعلم أنه اغتصب منه ومن والده ظلما» (٢) .

ولم يكن الأمير ، بطبيعة الحال ، ليبخل عليهم ببذل الوعود المغرية من أجل أن يحصل على مساعدتهم له ، وهكذا وضع هذا الأمير البيزنطى أول فصل من فصول المأساة التى حلت بالقسطنطينية على يد الحملة الصليبيةالرابعة.

أما قصة هذه الحملة والتطورات التى حدثت وإنتهت بسقوط العاصمة البيزنطية فى يد اللاتين ، فسيتم شرحها بالتفصيل خلال الفصلين التاليين من هذا البحث .

(2) Villehardouin : La conqueste de Constanitinople par les Barons Francais associez aux venitians L'an 1204. English Translatoin by Sir Marzials, London, 1965, p. 18.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الرابعة وبداية انحرافها

- البابا اينوسنت الثالث والدعوة للحملة .
- الاستعانة بأسطول البنادقة لنقل الحملة للشرق .
- تولى بونيفيس أوف مونتفرات قيادة الحملة .
- انحراف الحملة ضد مدينة زارا المسيحية .

فى سنة ١١٩٨ ، تولى كرسى البابوية واحد من ألمع البابوات الذين تولوا هذا المنصب فى العصور الوسطى ، وهو لوثر اوف سيجنى Lothar of Segni الذى عرف باسم البابا اينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) وهو ينتمى إلى عائلة رومانية عريقة هى عائلة Conti سادة مقاطعة سيجنى ، وكان يبلغ السابعة والثلاثون من العمر حين تولى منصب البابوية (١) .

وقد درس اللاهوت فى باريس على يد Peter of Corbeil وهو واحد من الرجال اللامعين فى هذا العلم ، كما درس أيضا القانون فى بولونا على يد واحد من أشهر رجال القانون فى ايطاليا وهو Uguccio of Ferrara

وقد ظهر البابا اينوسنت الثالث فى هذه الفترة ليسترد النفوذ السياسى للبابوية فى ايطاليا وعبر جبال الالب ، وليحمى السلطة الاكليريكية من جور السلطة العلمانية ، وفى ظل هذا البابا نظمت الحياة الدينية فى الغرب الاوروبى واديرت بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، فبينما خلف البابا جريجورى السابع «مرارة الحزن وعظيم القلق» نجد ان اينوسنت الثالث جعل من البابوية «المركز الاكثر تمجيدا على وجه الأرض» وذلك لأن البابا نائب المسيح . وخليفة بطرس . الذى ليس له نظير بين البشر ، فهو بصفته نائب المسيح يعتبر «ملك الملوك وسيد السادة» ، وهو يجمع فى شخصه بين السلطتين الدينية والدنيوية . لأن كلاهما أتت من نفس المصدر الألهى . وهكذا أصبح البابا على عهد اينوسنت الثالث صاحب السلطة المطلقة فى كل شيء وهو ما يعرف باسم ... Plenitudo Potestatis

وكان من رأيه ان البابا هو القاضى الأعلى فى الشئون الدينية والدنيوية على حد سواء ، فهو يمثل القانون الجنائى فى الأمور المدنية ، كما يمثل القانون

---

(١) أنظر الصورة رقم (١) للبابا اينوسنت الثالث .

الكنسى فى الأمور الدينية . ولذلك أصبح البابا هو الفيصل الأعلى للمجتمع المسيحى ، والمصدر الذى تنبع منه العدالة ، والمحكمة العليا التى يرفع اليها الناس شكاواهم وأصبحت روما على عهده الملجأ لكل صاحب شكوى مهما كان مصدرها .

أما الابريشة المقدسة لروما فهى من وجهة نظره «تجلس فى مكان متوسط بين الله والبشر ، هى أدنى من الله ، ولكنها أعلى من البشر» .

ومن اقواله عنها «الابرشيه ، انا املك ذلك اليوم الذى تجلس فيه فوق الامم والممالك ، ترفع وتخفض ، تقهر وتخرب ، تزرع وتشيد» .

وادعى البابا اينوسنت الثالث ، ان الامبراطورية الرومانية قد اختصت البابوية بشيئين هما :— Principaliter et finaliter

Principaliter لأن البابوية هى الأصل ، finaliter لأن الامبراطور يتسلم سلطاته العلمانية من الحبر الاعظم ، البابا .

وبناء على سلطة البابا المطلقة فى كل شىء التى نادى بها اينوسنت الثالث ، كان أول بابا يدعى الحق فى انفاق ايرادات الكنيسة بالصورة التى يراها هو فقط ، وقد أصبح للبابوية على عهده موارد مالية ضخمة ، هى الضرائب التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام ، وقد ارتبطت هذه الضرائب فى تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم العلمانيين والاكليركيين من أجل الغرض الصليبى . وقد خطا البابا اينوسنت خطوة جديدة فى هذا الشأن عندما اصدر أمرا سنة ١١٩٩ إلى جميع الاساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية جزءا من اربعين ($\frac{1}{40}$) من دخل الاسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها

واقطاعاتها ، هذا غير مجموع الضرائب الأخرى التى ظلت البابوية تجمعها عن طريق مباشر عند تعيين الاساقفة وغيرهم من كبار رجال الدين فى مناصبهم ، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران . ونتيجة لذلك أصبحت البابوية فى القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد المالية ما يعادل دخل كل ملوك أوروبا مجتمعين .

وهكذا تمكن البابا اينوسنت الثالث من تحقيق كل ما كانت تطمع فيه البابوية من سمو فى ضوء مبادىء جريجورى السابع واسكندر الثالث . وقد شبه البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس وبذلك عاد إلى نغمة سيادة البابوية على الامبراطورية .

والمعروف ان البابا اينوسنت الثالث قد اصدر قرار الحرمان على يوحنا الثانى ملك انجلترا ، ولما اعترف الملك بخطيئته وأعلن خضوعه ، التفت اينوسنت إلى البارونات الانجليز الذين ثاروا ضد يوحنا واجبروه على كتابة العهد الأعظم ، فضرب بهذا العهد عرض الحائط ، ثم اصدر قرار الحرمان على هؤلاء البارونات . وهو الذى حافظ على حقوق فردريك الثانى فى مملكة صقلية ، واشعل حربا مروعة فى المانيا ونادى بأنه من حق البابا تعيين الاباطرة بها أو عزلهم وفقاً لمشيئة الكنيسة ولصالحها (١) . وحاول جاهدا القضاء على

---

(١) بخصوص البابا اينوسنت الثالث والبابوية فى عهده أنظر المراجع التالية :—

Jacob (E) : Innocent III, in C.M.H. ed Hussey, London, 1975, Vol. VI, pp. 1 — 6.

Barrachough (g) : The Medieval Papacy, London, 1975, pp. 112 — 114.

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ٩ — ١٠ .

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٣١ — ٢٣٣ .

الهرطقة الالبيجنسية التى انتشرت فى جنوب فرنسا حتى قضى عليها وعلى أهلها (١) .

قد وضع البابا اينوسنت الثالث نصب عينيه محو اثار الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبيين فى الشرق ، تلك الانتصارات التى توجت بمعركة حطين فى ١١٨٧ م ، والعمل على استرجاع بيت المقدس من يد المسلمين . وبعد أن تولى اينوسنت منصب البابوية بوقت قصير ، دعا فى منتصف سنة ١١٩٨ إلى الإعداد لحملة صليبية جديدة هى الحملة التى عرفت باسم الحملة الصليبية الرابعة .

---

(١) الالبيجنسية حركة دينية ظهرت فى جنوب فرنسا فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وأصحابها ينسبون إلى مدينة البى Albi فى كونتية تولوز فعرفو باسم الالبيجنسيين Albigensians وأطلق عليهم كذلك اسم الكاتاريين Cathari أى المتطهرين ، كانت تعاليمهم ذات أصل شرقى وعلى صلة بتعاليم المانويين ونادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس ، الى غير ذلك من الاراء التى خالفت تعاليم الكنيسة ، مما جعل الموقف بينها و بينهم مسالة حياة أو موت ، قد حاول البابا اينوسنت الثالث إقناع هؤلاء الهراطقة فى أول الأمر بالعودة إلى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة فأرسل بعض الوعاظ على رأسهم مقدم ديرسيستو و مندوب من قبل البابا نفسه الى جنوب فرنسا لتحقيق ذلك ولكن هولاء المبعوثين لم يوفقوا فى مهمتهم ، لذلك أخذ البابا يدعو لحمله الصليبية ضد هؤلاء الهراطقة وقامت هذه الحمله بالفعل فى سنة ١٢٠٩ ونجحت فى مهمتها ، مما دفع البابا الى عقد مجمع دينى فى ١٢١٧ فور منح قائد هذه الحملة وهو سيمون دى مونتفورت أحد أمراء فرنسا ، دوقية تولوز وغيرها من الدوقيات المجاورة مكافأة له على نجاحه فى القضاء على هذه الحركة . عن ذلك المراجع التالية :

Lavise : Histoire de France, Paris, 1911, Tome 3, Premiere Partie, p. 262 — 277.

Painter (s) : A History of the Middle Ages, New York. 1954, p. 306.

سعيد عاشور : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ج ١ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

وقد أرسل البابا إلى ايمار Aymar بطريرك مملكة بيت المقدس يأمره بارسال تقرير مفصل إلى روما عن الموقف فى بلاد الشام وبصفة خاصة مدى قوة حكام المسلمين (١) .

وقام البابا على الفور باتصالات واسعة مع الاباطرة والملوك المسيحيين من أجل دعوتهم للاشتراك فى هذه الحرب الجديدة ضد المسلمين فأرسل إلى الامبراطور البيزنطى اليكسيوس الثالث انجيلوس يدعوه للمساهمة فى هذه الحملة وأكد البابا للامبراطور على ضرورة ترك الأمور الأخرى جانبا والاسراع للاشتراك فى هذه الحملة خاصة وان قرب الدولة البيزنطية من ميدان المعركة مع المسلمين مما ييسر لها هذه المهمة ومما جاء فى خطاب البابا اينوسنت إلى الامبراطور اليكسيوس الثالث قوله : «من يستطيع أن يفعل أكثر منك ؟ أنظر قربك من الميدان حيث يجب أن تشتعل المعركة ، ثروتك وقوتك ، ضع كل الاعتبارات الأخرى جانبا ، وجىء لمساعدة يسوع المسيح ، ووطنه الذى فاز بدمه . أن المسلمين سيفرون أمامك وأمام جيشك ، وأنت يجب أن تشارك مع الآخرين فى مساعدة البابوية» .

وقد أرسل البابا رسلا من طرفه إلى القسطنطينية من أجل التفاوض على موضوعين ، احدهما موضوع اشتراك البيزنطيين فى هذه الحملة الجديدة ، أما الموضوع الآخر فهو اتحاد الكنيستين . وقد استقبل البيزنطيون رسل البابا باحترام بالغ . لكن اللهجة المتعالية لخطاب البابا لم تجد صدا طيبا لدى الامبراطور

---

(1) Luchaire : Innocent III : La queslion d'Orient, p. 15.

كما أن تجربة البيزنطيين مع الحملة الصليبية السابقة وهى الحملة الثالثة جعلتهم لا يرحبون بالتعاون الفعال مع الصليبيين .

وقد رد الامبراطور على البابا بخطاب أوضح فيه أن الامبراطور فردريك بربروسا أثناء مروره بالأراضى البيزنطية منذ سنوات قليلة ، أقسم على عبور تلك الأراضى بسلام وعلى ألا يرتكب أى فعل ضد رعايا الامبراطور ،ولكنه نقض قسمه ، وقاتل المسيحيين مثلما قاتل المسلمين ، وأن الصليبيين منذ بداية الحروب الصليبية وهم يعتدون على الأراضى البيزنطية ، ويرفعون السلاح على المسيحيين بها ، ويدنسون أيديهم بدمائهم ويجلبون على أنفسهم بذلك غضب الله ، وأن من صميم اختصاص البابا أن يثنيهم عن اتيان مثل هذه الأفعال (١) .

وقد وعد الامبراطور البابا بأنه سيبذل كل جهده من أجل العمل على استرجاع الأراضى المقدسة ، إذا سمحت ظروف الامبراطورية بذلك .

أما فيما يتعلق باتحاد الكنيستين ، فلم تسفر المفاوضات عن شىء ، وقد أوضح الامبراطور للبابا رأيه فى هذا الموضوع ، وهو أن الاتحاد الأفضل لابد وأن تكون لإحدى الكنيستين فيه السيادة على الأخرى ، وأن كنيسة روما تطمع فى أن تكون لها هذه السيادة بما تدعيه من أنها الكنيسة العالمية ، الكنيسة الأم لكل الكنائس المسيحية . لكن الامبراطور أوضح أن هذا الأمر لا يخص

---

(١) أشار البابا اينوسنت الثالث فى خطابه إلى الإمبراطور اليكسيوس الثالث فى فى ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ إلى ماجاء فى خطاب الامبراطور للبابا ، أنظر عن ذلك . :

Innocentii III : Epistolae, in Patrologia Latina, ed Paris, 1855, Vol. CCXIV, Cols. 1123 — 1124.

كنيسة روما . ولكنه خاص بكنيسة أورشليم . وبالتالى لا يحق لروما ادعاء السيادة على كنيسة القسطنطينية (١) .

وهكذا لم تحقق دعوة البابا اينوسنت الثالث للامبراطور البيزنطى للاشتراك فى الحملة الصليبية نجاح يذكر ، أما فى الغرب الأوروبى فقد صادفت الدعوة نجاحا أكثر ، وأخذ رجال الدين يدعون للحملة . كما وضع صندوق فى كل كنيسة لتلقى الهبات المالية من أجل الاعداد لها .

والجدير بالذكر أن أحدا من ملوك أوروبا لم يشترك فى هذه الحملة ، فقد شغل كل من فيليب أوجسطس ملك فرنسا ويوحنا الثانى ملك انجلترا بالصراع الذى اشتعل بينهما من جهة وبمشاكلهما الداخلية من جهة أخرى (٢) . أما فيليب السوابى ملك المانيا فقد كان يخوض نضالا مريرا مع منافسه على العرش الالمانى أوتو اوف برنسويك ابن هنرى الأسد (٣) .

على أن ذلك لم يمنع الأمراء والفرسان الغربيين من تقبل الدعوة فأشترك فى هذه الحملة نخبة من أفضل البارونات والفرسان فى فرنسا مما جعل الطابع الفرنسى يطغى على الحملة كذلك اشترك فيها فرسان من انجلترا والمانيا ،

---

(1) Pears : The Fall of Constantinople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 226 — 227.

(2) Lavise ; Histoire de France, Paric 1911, Tome 3, Premiere partie, pp. 112 — 290.

Painter (s) ; A History of the Middle Ag s, New York , 1954, p. 253.

(3) Austin Lane'Poole ; Philip of Swabia and Otto Iv , in C.M,H. ed Hussey, London, 1975, Vol, VI, Part 1, pp , 44 — 71.

والفلاندرز وصقلية (١) . وتولى قيادة الحملة ثيبوت كونت شامبنى وبرى Thibout Count of Champagne and Brie. الذى كان فى الثانيـة والعشرين من عمره آنذاك ، كما يذكر مؤرخ الحملة الماريشال جيوفـرى فيلهاردوين (٢) .

وكانت الخطوة الأولى أمام الصليبيين هى تحديد وجهة الحملـة . وقد انقسموا إلى فريقين ، فريق يطالب بأن تتوجه إلى بيت المقدس مباشرة للاستيلاء عليها ، وفريق آخر رأى أن تكون وجهتهم هى مصر ، على أساس أنها الخطر الحقيقى الذى يهدد الصليبيين فى الشام ، بما لها من امكانيات مادية وبشرية ضخمة استعان بها الايوبيون على محاربة الصليبيين . هذا بالاضافة إلى أن اعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت حكم الملك العادل جعل الخطر يتزايد على الصليبيين فيما لو اتجهوا لحصار بيت المقدس أولا لأنهم عندئذ سيقعون بين فكى الكماشة حين تخرج الجيوش من مصر ومن دمشق فى نفس الوقت للقضاء عليهم .

هذا فضلا عن وجود عدد كبير من التجار الايطاليين فى موانىء دلتا النيـل وبصفة خاصة فى مدينتى دمياط والاسكندرية ولاشك أن هؤلاء التجار سيتعرضون للانتقام من جانب السلطات المصرية ، فى حالة حصار الصليبيين لبيت المقدس ، فالأفضل أن يبدأ الصليبيون الهجوم على شواطىء مصر الشمالية لحماية هؤلاء التجار وتأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين ، ثم بعد ذلك يصبح من السهل عليهم الاستيلاء على بيت المقدس ، أما عن طريق القوة ، أو عن طريق المساومة .

---

(١) ذكر فيلهاردوين بالتفصيل أسماء كبار الشخصيات التى اشتركت فى هذه الحملة ، أنظر عن ذلك :

Villehardouin : op. cit., pp. 2 — 3.

(2) Ibid : p. 2.

ولهذه الاسباب كلها ، تم الاتفاق على أن تكون مصر هى مقصد الحملة الصليبية الجديدة (١) .

على ان الصليبيين لم يلبثوا أن واجهوا مشكلة خاصة بكيفية حصولهم على السفن اللازمة لنقلهم إلى مصر . وقد وقع اختيارهم على البندقية لإمدادهم بما يلزمهم من أسطول ، وذلك نظرا للمركز الكبير والهام الذى كان للبندقية فى هذه الفترة . فقد كانت آنذاك فى أوج قوتها ومجدها وثرائها . وكان هذا الثراء ناتج عن نشاط أسطولها الضخم فى عمليات النقل التجارى بين الشرق والغرب . وبعد قيام الحروب الصليبية أخذ هذا الاسطول يقوم بدور هام فى نقل الصليبيين إلى الشرق وكذلك نقل المعدات الحربية لهم وللمسلمين على حد سواء لأن ما يهم البندقية كان هو الكسب المادى الذى تحصل عليه نتيجة لعمليات النقل . أما الصالح الصليبى والبابوية والأراضى المقدسة فهذه كلها الفاظ جوفاء فى نظر البنادقة لن يجنوا من ورائها الافساد تجارتهم وكساد نشاطهم ، لذلك لم يكونوا ليتأخروا عن التعامل مع المسلمين والمسيحيين ، وتقديم خدماتهم للجميع ، على الرغم من المنشورات الصريحة التى كان يصدرها بابوات روما بتحريم الاتجار فى المعدات الحربية مع المسلمين والتهديد بتوقيع عقوبة الحرمان على كل من يشتغل بهذه التجارة المحرمة ومصادرة ممتلكاته .

---

(1)Grousset (R). : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris 1946, Vol. III p. 171.

Nicol : The Fourth Crusade and the greek and Latin Empires, 1204 — 1261, in C.M.H. ed Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, Prat 1, p. 276.

Runciman (S) : A History of the Crusades, Cambridge University Press, 1966, Vol. 3, p. 113.

وكان للبندقية دار لصناعة السفن ، وقد روعى فى بناء سفنها التجارية امكان تحويلها إلى سفن حربية وقت الحرب . وكانت أساطيلها التجارية تجتمع فى شكل قوافل وتغادر البندقية مرتين فى العام فى مواعيد محددة ثابتة تحت اشراف أحد كبار موظفى الحكومة .

وكان هناك خمس قوافل رئيسية ، قافلة القسطنطينية وقافلة الاسكندرية وقافلة الشام ، وقافلة طانا Tana على سواحل البحر الاسود ، وقافلة الفلاندرز فى شمال أوربا .

وفيما يتعلق بقافلة الاسكندرية فانها كانت تتخذ طريقها من البندقية إلى الاسكندرية مرتين فى السنة ، واحدة فى الخريف والثانية فى شهر يناير ، وتتكون كل قافلة من ثمانى إلى ثلاث عشرة سفينة. وكانت جالية البنادقة بالاسكندرية من أكبر الجاليات عددا وأكثرها ثراء ، وكان لهم حى خاص ينزلون به واشتمل هذا الحى على عدد من الخانات وهى عبارة عن مبانى فخمة مربعة على شكل حصون ، ولها فناء داخلى تجتمع حوله الحوانيت فى الدور الأرضى وأعلاها مساكن التجار .

أما عن التنظيم السياسى للبندقية ، فقد كانت تأخذ بالنظام الجمهورى ، وكان الاسم الرسمى لها هو «جمهورية سانت مارك» نسبة إلى القديس مرقص . والمعروف أن رفات هذا القديس كانت موجودة بكنيسة الاسكندرية ، لكن اثنين من التجار البنادقة قاموا بسرقتها فى سنة ٨٢٨ م . ونقلوها إلى البندقية ، وشيد دوقها آنذاك ويدعى جستنيان مارتشياكو Justinian Particiaco كنيسة فخمة أودع فيها رفات هذا القديس . وعرفت باسم كنيسة سانت مارك ، وأصبحت مركزا للحياة الدينية فى البندقية .

وكان على رأس الجهاز الحكومى للبندقية الدوق Doge الذى يلى

منصبه مدى الحياة ، وهو رمزا للسلطة أكثر منه مصدرا لها . وكان إلى جانبه هيئات سياسية أخرى ، مثل مجلس العشرة ، والمجلس الكبير ، ومجلس الشيوخ والمجمع ، ومجلس الدولة ، وكان لهذه المجالس سلطات كبيرة واختص كل منها باختصاصات معينة ، حتى يتسنى تنفيذ الأمور فى سرعة وحسم بعيدا عن التعقيدات الروتينية والروح البيروقراطية .

وقد تمتع شعب البندقية بحياة ثرية مترفة ، ودأب على الاحتفال بمختلف الاعياد الدينية والقومية ، وأقامت الحكومة للشعب مسرحا عظيما شغف بـه الأهالى شغفا كبيرا ، وشهدت البندقية الحفلات الفاخرة والولائم والمواكب والاستقبالات الرائعة التى كانت تبهر بها أوروبا بأسرها .

وكانت البندقية على درجة كبيرة من الحضارة وتميزت مبانيها بالفخامة وقد تأثرت فى ذلك إلى حد كبير بالحضارة البيزنطية ، حتى أن البندقية كانت أقرب البلدان الأوربية للطابع البيزنطى ، وقد تجلى ذلك بوضوح فى كنيستها الشهيرة سانت مارك St. Mark التى كانت من نفس طراز كنيسة آيا صوفيا فى القسطنطينية ، وكذلك فى غيرها من المنشآت والمبانى . وقد تمتعت البندقية بمركز خاص فى القسطنطينية نتيجة للامتيازات التجارية التى حصلت عليها هناك ، ولهذا فكثيرا ما كانت تدين بالولاء للقسطنطينية أكثر مما تدين لروما .

على أنها بدأت تعانى من المشاكل مع القسطنطينية فى السنوات الأخيرة ، وذلك بسبب تغلب نفوذ منافستاها جنوا وبيزا فى العاصمة البيزنطية ، وعلى الأخص فى عصر الامبراطور مانويل كومنينوس ، الذى شهد صراعا عنيفا بين الطرفين (١) .

---

(١) أنظر تفاصيل هذا الصراع فى المصدر التالى :—

Kinnamos (Y) : Deeds of John and Manual Comnenus, Trans- =

على أن الامبراطور اسحاق انجيلوس عقد تحالف جديد مع البندقية فى ١١٨٧ ومرة أخرى فى ١١٨٩ أعاد لها امتيازاتها السابقة مع دفع تعويض مناسب مقابل أن تضع البندقية أسطولها تحت تصرف البيزنطيين فى حالة نشوب الحرب بينهم وبين أعدائهم .

لكن البنادقة بدأوا يشعرون بأن البيازنة لقوا الحظوة على حسابهم وذلك فى عهد الامبراطور اليكسيوس الثالث ، وقد أرسل دوق البندقية خلال صيف ١٢٠٠ سفارة إلى الامبراطور البيزنطى يطلب دفع الأموال المتأخرة وتجديد الامتيازات التجارية . وبعد ستة أشهر أرسل سفارة ثانية لنفس الغرض وطالت المفاوضات بين الطرفين دون الوصول إلى اتفاق .

وقد بلغت كراهية البنادقة للقسطنطينية ذروتها عندما علموا أن الامبراطور اليكسيوس استقبل فى مايو ١٢٠١ سفارة من جنوا وأنه يتفاوض مع زعيمها الذى يدعى Ottobone della Croce من أجل الامتيازات التجارية التى كانت البندقية تعتبرها مقتصرة عليها (١) .

فى ذلك الوقت كان دوق البندقية هو انريكو داندولو Enerico Dandolo الذى كان من أشهر الرجال فى عصره وكان رجلا مسنا تخطى الستين من

---

sated to English by Chales M, Brand, Colombia University Press, New York, 1976, Book VI, pp. 209 - - 213.

(1) Diehi : Une Republique patriciene, venise .different places.
Choniates : Historia, P. 712.
Cessi (R) : Venice to the Eve of The Fourth Crusade ,in C.M.H. ed. Hussey, Cambridge. 1975, Vol. VI, Palr 1, pp. 251 - - 273.
Pears : The Fall of Constantinople, Being of the Fourth Crusade, pp. 231 233.

عمره لكنه كان ملىء بالنشاط والحيوية ، طموح إلى المجد ، كرس نفسه من أجل العمل لمصلحة جمهوريته ، ويقال أنه رغم فقدانه لبصره الا أنه كان بامكانه أن يقود جيشا كبيرا بنفس الكفاءة التى يقود بها أسطولا ضخما (١) .

وهكذا فقد أرسل الصليبيون رسلهم إلى البندقية للاتفاق على الاستعانة بأسطولها لنقلهم إلى مصر ، وكان هؤلاء الرسل ستة أشخاص أحدهم هو فيلهاردوين أما الخمسة الآخرون فكانوا :

Miles The Barbatn, Conon of Bethune,
Alard Maquereau, John of Friaise and
Walter of Gawdonivlle.

ووصل هؤلاء الرسل إلى البندقية فى الأسبوع الأول من فبراير ١٢٠١ ، وبعد أن قضى الرسل بالبندقية أربعة أيام حان موعد لقائهم بالدوق ، الذى استقبلهم بقصره هو ومستشاريه وعرض عليهم الرسل طلبهم قائلين : «لقد جئنا من طرف بارونات فرنسا الذين اتخذوا الصليب والذين يرغبون فى خدمة المسيح واستعادة أورشليم — إذا أراد الله — ولأنهم يعلمون أنه لا يوجد من يمتلك قوة أكبر من قوتك وقوة رجالك لكى يساعدونهم فى هذه المهمة ، لذلك نستحلفك بالله أن تأخذك الشفقة على الأرض المقدسة ، وعار المسيح ، وتجب حاجة لورداتنا إلى سفن النقل والقتال» (٢) .

وبعد مرور ثمانية أيام تشاور خلالها الدوق مع رجاله ، عرض على الرسل شروطه وكانت تشتمل على أن تقدم البندقية سفنا لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فرس . وتسعة آلاف مقاتل ، وسفنا أخرى لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرون الف من المشاة ، وتعهدت البندقية كذلك بتقديم المؤن لرجال

(1) Gibbon (E) The Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1976, Vol 6, pp. 149 — 150.

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 4 — 5.

الحملة وخيولهم لمدة تسعة أشهر ، كل ذلك مقابل أن يدفع لها الصليبيون ماركان عن كل رجل ، وأربعة ماركات عن كل فرس وبذلك يصبح مجموع ما يؤديه الصليبيون للبندقية ٨٥ ألف مارك .

واستطرد الدوق قائلا لرسل الصليبيين : «وحبا فى الله سنضيف إلى الأسطول خمسين غاليا Galleys حربية ، بشرط أن نكون شركاء فى كل المكاسب التى تحققها الحملة من فتوحات أو أموال فى البر أو فى البحر بحيث تأخذون النصف ونأخذ نحن النصف الآخر» .

وبعد أن تشاور الرسل ، أجابوا بأنهم قبلوا شروطه ، وتم عقد الاتفاق بين الطرفين ، وقد دفع الرسل مبلغ خمسة آلاف مارك فضة إلى الدوق للبدء فى تنفيذ الاتفاق ، وأرسلوا رسلا إلى البابا اينوسنت الثالث فى روما ليخبروه بهذا الاتفاق ثم عادوا لبلادهم (١) .

فى ذلك الوقت توفى تيبوت كونت شامبنى وقائد الحملة ، وكان على الصليبيين أن يختاروا قائدا آخر يحل محله وقد وقع اختيارهم على الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات الذى كان قريبا لفيليب السوابى ملك المانيا ، فقد كان وليم أوف مونتفرات والد بونيفيس متزوجا من صوفيا Sophia ابنة فردريك بربروسا وهى أخت (غير شقيقة) لفيليب السوابى وقد ساهمت عائلة مونتفرات بنصيب كبير فى الحروب الصليبية وكان لوليم أربعة أبناء ، تركوا بصماتهم على تاريخ الحروب الصليبية ، فأكبرهم وهو وليم واسم الشهرة له هو Longsword تزوج فى ١١٧٥ ابنة بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، وتسلم بائنة مدينتى يافا وعسقلان ولكنه توفى بعد شهرين من الزواج . أما

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 6 — 8.

الابن الثانى كونراد الذى أصبح ماركيز أوف مونتفرات عند موت ولـيم ، فقد ذهب إلى الشرق وساعد الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس على مقـاومة حصار القائد البيزنطى الثائر براناس للقسطنطينية عام ١١٨٦ وهزم باراناس وأرسل رأسه للامبراطور . وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحـاق ، ثم ذهب إلى فلسطين فى ١١٨٧ حيث لعب دورا هاما خلال الأربع سنـوات التالية ، وقاوم حصار صلاح الدين والمسلمين لمدينة عكا ، وبعد زواجه من ايزابيلا Isabella وريثة مملكة بيت المقدس وبعد مصادمات مع ريتشارد ملك انجلترا ، أتخذ لقب ملك بيت المقدس ، ولكنه قتل فى ١١٩٢ قتله أحد أفراد فرقه الاسماعيلية .

أما رينيه وهو الابن الثالث ، فقد تزوج من ماريا ابنة الامبراطـور البيزنطى مانويل كومنينوس ، وتسلم كبائنه مدينة سالونيك وقد مات دون أن ينجب .

وهكذا لم يتبق من هؤلاء الابناء سوى الابن الاصغر وهو بونيفيس الذى صار ماركيز اوف مونتفرات .

وقد ساهم بونيفيس كذلك فى الحروب الصليبية ووقع أسيرا فى يدصلاح الدين ، وأطلق سراحه أثناء تبادل الأسرى ، وعرف عن بونيفيس دمـاثة الأخلاق والشجاعة فى القتال ، وكان بلاطه فى مونتفرات مزدحما بالفنـانين وشعراء التروبادور .

وهكذا فقد أرسل اليه الصليبيون يطلبون منه الحضور إلى سواسون Soisson للتشاور معه ، فلبى طلبهم واستقبل فى سواسون باحترام بالغ ، وتوسـل اليه البارونات أن يشترك فى الحملة الصليبية وأن يقبل تولى قيادة الجيش الصليبى .

وقد استجاب بونيفيس لرجائهم ، وفى سبتمبر ١٢٠١ أتخذ شارة الصليب فى كنيسة نوتردام فى سواسون ، وتسلم قيادة الجيش ، ثم عاد إلى بلده لتدبير بعض الأمورالخاصة به،وتم الاتفاق على أن يلحق بهم بعد ذلك فى البندقية(١).

وفى ٢٢ يوليو ١٢٠٢ وصل إلى البندقية الكاردينال بطرس كابوانسو Peter Capuano نائبا عن البابا فى الحملة .

اجتمع الصليبيون فى جزيرة سانت نيقولا St Niolas (الليسدو) التابعة للبندقية ، وهناك طالبهم الدوق داندولو بدفع المبلغ الذى اتفق عليه ، لقاء نقلهم بالأسطول إلى الشرق فأخذ الصليبيون يحاولون جمع المبلغ ، وفى النهاية لم يتمكنوا من جمع أكثر من ٣٤ ألف مارك .

هنا غضب الدوق أشد الغضب ، واتهمهم بالخداع وهددهم بأنه فى حالة عدم دفعهم المبلغ كاملا فأنه سيتركهم فى هذه الجزيرة دون طعام أو شراب حتى يهلكوا (٢) .

عندئذ اجتمع البارونات وبذلوا جهدا كبيرا حتى استطاعوا جمع مبلغا آخر دفعوه للدوق وتبقى لدى الصليبيين مبلغ ٣٦ ألف مارك يجب أن تدفع للبنادقة .

وقد استغل الدوق هذا الموقف ليوجه الحملة الصليبية الوجهة التى تتفق ومصالح جمهوريته . فعرض على الصليبيين أن يؤجل لهم دفع الدين ، مقابل

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 10 — 11.
Nicol : op. cit., pp. 277.
Pears : op. cit., pp. 27 — 273.

(2) Clari (R) : Laconquete de consta ntinople, Editeepar lauer, paris. 1924, p. 10.

أن يساعدوه فى الاستيلاء على مدينة زارا على البحر الادرياتيكى فى اقليم سكلافونيا والتى كانت تابعة للبنادقة ثم إنتزعها منهم ملك هنغاريا .

وقد علل لهم الدوق هذا العمل بقوله — كما يذكر روبرت كلارى — انهم فى فصل الشتاء ، ولن يستطيعوا أن يذهبوا إلى الأراضى المقدسة ، التى كان المفروض أن يتخذوا طريقهم اليها قبل حلول هذا الفصل ، وأن الصليبيين هم المسئولون عن هذا التعطيل ، وأنه من الأفضل لهم أن يتعاونوا مع البنادقة فى الاستيلاء على زارا التى ستمدهم بالكثير من المؤن ليتزودوا بها خلال رحلتهم بعد ذلك للأراضى المقدسة .

وقد وافق البارونات وكبار رجال الحملة على اقتراح الدوق (١).

والجدير بالذكر أن الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات قائد الحملة لم يكن موجودا مع الصليبيين آنذاك ولم يشترك معهم فى الهجوم على زارا (٢)، وذلك لوجوده فى المانيا للتباحث مع فيليب السوابى والامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس (٣) .

وقبل الذهاب إلى زارا أعلن الدوق عن رغبته فى أتخاذ شارة الصليب والانضمام إلى الحملة الصليبية الذاهبة لتحرير قبر المسيح ، وخطب فيهم خطبة مؤثرة أوضح فيها أنه رغم عجزه وكبر سنه إلا أنه قرر أن يصحبهم إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين واما أن يعيش معهم أو يموت بينهم ، وفى كنيسة سانت مارك فى البندقية احتفل باتخاذه شارة الصليب التى وضعت على قبعته

(1) Clari : op. cit., pp. 11 — 12.

(2) Villeharedouin : op. cit., p. 19.

(3) Nicol : op. cit., p. 179.

البيضاء الكبيرة وحذا حذوه جمع غفير من البنادقة (١) .

ومن المستغرب أن يكون أول عمل يقوم به الدوق بعد اتخاذه الصليب هو قتال مدينة زارا واهاليها المسيحيين . وفى اكتوبر ١٢٠٢ اتخذت سفن البندقية المحملة بالصليبين طريقها إلى زارا ، التى وصلوا أمامها فى ١٠ نوفمبر ١٢٠٢ وفى اليوم التالى مباشرة أى فى ١١ نوفمبر ١٢٠٢ بدأ حصارهم لها . وقد كانت المدينة على جانب كبير من القوة والمناعة حتى لقد دهش الصليبيين من شدة حصانتها وقالوا بأنهم «لن يستطيعوا اقتحامها بالقوة إلا بمساعدة من الله ذاته».

أثناء حصار الصليبين لزارا قام أحدالاخوةالسيسترشيان cestercians(٢) بتحذيرهم من قتال المدينة حيث أنها مسيحية وهم مسيحيون ومتخذون شارة الصليب أيضا مما يعرضهم لغضب بابا روما . لكن دوق البندقية غضب غضبا شديدا لدى سماعه لهذا التحذير ، ولجأ إلى التهديد ليجبر الصليبيين على مساعدته بعد أن شعر بترددهم ، فأوضح لهم بأنهم إذا تخلوا عنه فانه سيقوم بالاستيلاء

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 16 — 17.

(٢) الاخوة السيسترشيان هم جماعة من الرهبان التابعين لدير سيتو — فى برجنديا — الذى تم تأسيسه فى سنة ١٠٩٨ بواسطة بعض الرهبان البندكتيين الذين رغبوا فى حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة آنذاك . وكان هذا النظام الجديد محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحلى الذى تمثل فى الديرية البندكتية ، والمركزية المطلقة التى اتبعتها الديرية الكلونية ، وقد أخذ هذا النظام ينمو فى سرعة فائقة وانتشر فى جميع أنحاء غرب أوروبا بفضل مميزاته الواضحة من ناحية ، وجهود القديس برنارد (١٠٩١ — ١١٥٣) من ناحية أخرى .

للمزيد عن هذا النظام راجع :

Workman : The E volution of the Monastic iedeal, London, 1928, pp. 239 — 244.

على المدينة عن طريق الاتفاق مع أهلها وان الصليبيين سيكونون بطبيعة الحال خارج هذا الاتفاق وبالتالى فأنهم لن يحصلوا على أية مكاسب مادية . عندئذ وافق البارونات على مساعدته والاستمرار فى المهمة حتى نهايتها . وفى اليوم التالى أخذوا فى مهاجمة أسوار وأبراج المدينة ، حتى أعلن أهلها الاستسلام للدوق مقابل الابقاء على حياتهم . عندئذ ذهب الدوق إلى البارونات وقال لهم : «سادتى .. لقد تم استيلاؤنا على هذه المدينة بفضل الله ، وبفضل مساعدتكم ، ولن نستطيع الذهاب للشرق الآن . لأننا فى فصل الشتاء ،ولأننا لن نجد أية أسواق فى أى مكان آخر تمدنا بما نحتاجه ، وهذه المدينة على جانب كبير من الثراء ، ومزودة بكل المؤن ، دعونا نقتسمها بالنصف ، وسنأخذ النصف ، وأنتم النصف الآخر» (١) .

وهكذا تم تقسيم مدينة زارا بين الطرفين ، فأخذ البنادقة النصف الذى به الميناء ، وأخذ الصليبيون نصف المدينة الآخر ، ونصبوا معسكرهم هناك ، على أن العداء لم يلبث أن تفجر بين البنادقة والصليبيين وهرع كل منهم إلى حمل السلاح واقتتلوا فى شوارع المدينة بمختلف أنواع الأسلحة التى معهم واستمر القتال أسبوعا ، وألحق الصليبيين نظراً لتفوقهم فى العدد خسائر كبيرة بالبنادقة . وقد بذل دوق البندقية والبارونات الكثير من الجهد حتى نجحوا فى اقرار السلام بين الطرفين . وبعد أن قضى الصليبيون بزارا ما يقرب من الأسبوعين ، وصل الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات (٢) .

فى ذلك الوقت كانت الاخبار قد وصلت إلى البابا اينوسنت الثالث فى روما بانحراف هذه الحملة عن هدفها الاساسى واتجاهها ضد مدينة زارا ، فأ

---

(1) Villehardouin : ip. cit., pp. 20 — 21

(2) Villehardoiun : op. cit., pp. 21 — 22.

وقتالها لأهاليها المسيحيين . فاستشاط البابا غضبا ، وذلك لسببين ، أولهما قتال مدينة مسيحية والحاق الاذى بأهاليها المسيحيين ، والثانى لأن معنى ذلك ان السيطرة على الحملة لم تعد للبابا وانما الت لأشخاص آخرين . لذلك أوقع البابا قرار الحرمان على الحملة الصليبية كلها (١) . وهنا اسقط فى يد الصليبيين ، وأدركوا إلى أى مدى تورطوا فى هذا العمل .

وقد اجتمع البارونات للتشاور ، وتم الاتفاق على ضرورة ارسال وفدا يمثلهم إلى البابا فى روما ليلتمسوا منه العفو عنهم ورفع قرار الحرمان.واختاروا اثنين من الاكليركيين هما نيفلون Nevelon أسقف سواسون ، ويوحنا أوف نويون John of Noyon الذى يتبع بلدوين كونت فلاندرز وهينولت ، وصحبهما فارسان هما :

Robert of Bones and John of Friaize على أن روبرت تركهم واتخذ طريقه إلى سوريا ، وهكذا أصبح الوفد مكونا من ثلاثة أشخاص فقط . وحين قابلوا البابا قالوا له :

«ان البارونات يطلبون عفوك من أجل استيلائهم على زارا فقد كان هذا التصرف طائش وآثم . ولذلك فأنهم يقدمون أنفسهم لك بصفتك والدهم الطيب ، وهم على أتم استعداد لتنفيذ جميع أوامرك» .

فرد عليهم البابا موضحا بأنه يدرك تماما أن هذا الخطأ الذى ارتكبه الصليبيون هو خطأ الآخرين — بقصد البنادقة — وأنه يأسف أشد الأسف لما

---

(1) Nicol : The Fourth Crusade, p. 180.
Runciman : The History of the Crusades, Vol. 3. p. 115. Gibbon: The Decline and Fall of the Roman Epire Vol. 6, p. 153.

فعلوه . على أنه فى النهاية غفر لهم فعلتهم هذه ، ورفع عنهم قرار الحرمان وقصره على البنادقة فقط ، ثم زودهم بنصحه وتعليماته التى نصت على تماسكهم وتعاونهم من أجل خدمة الرب . وقد منح البابا كل السلطات لرجلى الدين نيقلون ويوحنا من أجل العمل على اتحاد جيش الصليبيين ، حتى يلحق بهم كاردينالا من طرفه (١) .

وهكذا تم للبنادقة التغرير بالحملة الصليبية الرابعة واستغلالها لتحقيق مصالحهم الخاصة ، بدلا من توجيهها للشرق ومحاربة المسلمين ، وكان هذا أول انحراف يحدث لهذه الحملة الصليبية .

أما الانحراف الثانى فى خط سير هذه الحملة الغريبة فكانت ضحيته العاصمة البيزنطية القسطنطينية وذلك على النحو الذى سيتضح خلال عرض الاحداث فى الفصل التالى .

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 26.
Runciman : A History of the Crusades, Vol. 3, p. 115.
Nicol : The Fourth Crusade, p. 280.

الفصل الرابع

الحملة الصليبية والعاصمة البيزنطية

«أيتها المدينـــة .. المدينـــة ...
لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس
غضب الله»

خونياتيس

- الاتصالات بين فيليب والصليبيين .
- وصول الامير اليكسيوس انجيلوس إلى زارا .
- خط سير الحملة من زارا إلى القسطنطينية .
- نجاح الصليبيين فى استرداد العرش البيزنطى لحليفهم .
- تطور العلاقات بين الصليبيين واليكسيوس الرابع .
- استيلاء الصليبيين على العاصمة البيزنطية .

استعرضنا فى الفصل السابق التفاصيل الخاصة بالحملة الصليبية الرابعة من حيث الدعوة لها والدور الذى لعبته البندقية فى العمل على الانحراف بالحملة عن هدفها الأساسى ومهاجمة مدينة زارا والاستيلاء عليها ، واقتسامها مع الصليبيين وصدى ذلك عند البابا اينوسنت الثالث .

وفى أثناء ذلك كان الامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس ، قد أكمل رحلته ووصل إلى المانيا حيث قوبل بالترحاب من جانب شقيقته إيرين وزوجها فيليب السوابى ، ولاشك أن اليكسيوس قد أخبر فيليب بالاتصالات التى تمت بينه وبين زعماء الحملة الصليبية أثناء مروره بشمال إيطاليا . وبما أن فيليب كان لا يستطيع أن يقدم المساعدة العسكرية لاليكسيوس نظرا لاشتعال الحرب الاهلية فى المانيا وقتذاك . وبما أن قائد الحملة الصليبية وهو الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات كان ابن أخت فيليب السوابى . وبالتالى يسهل التأثير عليه من جانب خاله فيليب . بالاضافة لما ذكره المؤرخ الفرنسى الكونت ريان عن الدوافع الخاصة لدى فيليب السوابى (١) . لهذا كله فالمرجح أن فيليب قد وافق على الاستعانة بالحملة الصليبية من أجل استرداد العرش البيزنطى اوالدز وجته اسحاق انجيلوس .

وقد تباحث كل من فيليب واليكسيوس ، واشترك معهما فى المباحثات الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات وذلك أثناء زيارته لألمانيا فى أوائل عام ١٢٠٢ ، حول الامتيازات التى سيقدمها اليكسوس للجانب الصليبى مقابل المساعدة العسكرية التى سيحصل عليها من الحملة الصليبية (٢) .

---

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث .

(2) Pears : The Fall of Constantiople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 273 — 275.

Nicol : The Fourth Crusade, p. 278.

وفى ديسمبر ١٢٠٢ وبعد ما يقرب من الشهر بعد فتح الصليبيين لمدينة زار وصل اليهارسل الملك فيليب ، وسلموا لزعماء الحملة رسالة الملك فيليب اليهم وبها الشروط المعروضة عليهم ، وجاء المؤرخ فيلهاردوين بنص الرسالة وكانت كالتالى (١) :

«سادتى ، سأرسل لكم شقيق زوجتى ، وأضعه بين يدى الله — الذى ربما حفظه من الموت — وبين أيديكم .

ولأنكم اتخذتم موقفا نزيها تجا الله وتجاه الحق ، وتجاه العدالة لذلك أرجو أن تتعاونوا — قدر استطاعتكم — من أجل استرداد ميراثه الذى سلب منه ظلما . وشقيق زوجتى سيقدم لكم أفضل الشروط ، وسيمنحكم المساعدة الأكثر فعالية من أجل استرداد الأراضى المقدسة .

أولا — إذا الله هيأ لكم استرداد ميراثه ، فأنه سيخضع امبراطورية رومانيا (الامبراطورية البيزنطية) لسلطان البابوية التى انفصلت عنها طويلا .

وهو يعلم أنكم انفقتم ثرواتكم ، وأنكم فقراء ، لذلك فانه سيمنحكم ٢٠٠,٠٠٠ مارك من الفضة ، وسيقدم المؤن لكل من فى الجيش ، صغيرا أكان أم كبيرا .

وهو بشخصه سوف يذهب معكم لأرض بابليون (مصر) أو اذا رأيتم أفضل من ذلك ، فانه سيرسل إلى هناك ١٠,٠٠٠ مقاتل على نفقته الخاصة . وطوال حياته ، فانه سيضع على نفقته الخاصة أيضا خمسمائة فارس فى الأراضى المقدسة لحراستها» .

---

(1) Villehardouin : op. p. 22.

وقد أوضح الرسل أنهم مزودون بكافة السلطات التى تتيح لهم ابـــرام الاتفاق مع الصليبيين ، ثم أخذوا يوضحون أهمية هذه الامتيازات التى يقدمها لهم الأمير البيزنطى وانهم اذا رفضوها برهنوا على أنهم ليسوا جديرين بالمجد والفتح .

وقد طلب البارونات والدوق داندولو منحهم مهلة حتى اليوم التـــالى للتفكير والتشار فى هذا الأمر .

وأثناء المشاورات التى جرت بين الصليبيين والبنادقة أوضح جـــماعـة السيسترشيان رأيهم من أنهم لا يوافقون على هذا العرض ، وأنهم لم يتركـوا أوطانهم من أجل محاربة المسيحيين ، وأكدوا على ضرورة التوجه مبـاشرة لقتال المسلمين فى سوريا . فرد عليهم أحد الصليبيين موضحا بأنهم لـــــن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا فى سوريا وأنه عن طريق مصر أو الدولة البيزنطيـة فقط سيتمكنوا من استعادة الاراضى المقدسة ، وانهم إذا لم يوافقوا على هذه الشروط ، فأنهم سوف يندمون كثيرا فيما بعد (١) .

وقد وافق قائد الحملة المركيز بونيفيس اوف مونتفرات على هذا العرض والمرجح أن الامر كان متفقا عليه من قبل بينه وبين الملك فيليب . والأمـــير إليكسيوس انجيلوس، وذلك أثناء الاتصالات التى تمت بين هذه الاطراف فى أوائل عام ١٢٠٢ ، كما سبقت الاشارة .

كذلك وافق على العرض باقى البارونات ، وابلغوا موافقتهم لـــدوق البندقية . فوافق هو الآخر ، وتم ابرام الاتفاق بين الطرفين ، وقد مـــثل الصليبيين اثنى عشرة شخصا كان من بينهم الماركيز بونيفس اوف مونتفرات ، ... ...

(1) Villehardouin : op. cit., p. 24.

والكونت بلدوين أوف فلاندرز وهينولت والكونت لويس اوف بلواوشارتر (١)

وهكذا تم انحراف هذه الحملة الصليبية وللمرة الثانية ضد مدينة مسيحية ، ولكن ما هو موقف البابا اينوسنت الثالث من هذا الانحراف الثانى للحملة ؟

حين وصلت هذه الاخبار إلى روما ، علم البابا بأن فيليب السوابى واليكسيوس نجحا فى التأثير على الصليبيين وتحويل اتجاه الحملة وبذلك خرج أمرها من يده ، وقد أوضح البابا لرسل الحملة الذين كانوا فى روما أن الصليبيين لا يملكون الحق فى التدخل فى الاحداث الداخلية الخاصة بالبيزنطيين .

« Vos nullam in greacos Jurisdictionem babientes»(2)

وحذرهم أكثر من مرة من مهاجمة الدولة البيزنطية Romania بحجة أن الضرورة تقتضى ذلك . وقد أرسل البابا اينوسنت خطابات إلى الصليبيين عاد بها رسلهم . أوضح فى أحد هذه الخطابات أن الصليبيين أمروا بأن يقسموا على الطاعة . وقد اشتمل هذا القسم على وعد بعدم مهاجمة البيزنطيين وحذرهم البابا بأنهم اذا لم يقسموا على ذلك ويمتثلوا لأوامره فان العفو الممنوح لهم نتيجة هجومهم على زارا سوف يصبح facto de أى باطلا (٣) .

وقد أعفى الكاردينال بطرس كابوانو من منصبه كنائب عن البابا فى الحملة وحل محله اثنين آخرين هما :

John de Friaise and Mohon Faicete

وقد أمر أحدهما بأن يذيع قرار الحرمان الخاص بالبنادقة .

أما فيما يتعلق بالقسم ، فان بونيفيس اوف مونتفرات استغل نفوذه كقائد

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 24.

(2) Innocent III : Epistolae, VIII.

(3) Pears : op. cit., p. 288.

للحملة ، وتلاعب فى هذا الموضوع بأن أخفى عن الصليبيين أوامر البابا الخاصة بالقسم ، وأخبر قلة قليلة من الزعماء فقط ، وأرسل قسمهم بالوعد بعــدم مهاجمة البيزنطيين إلى روما (١) .

وفى بداية ابريل ١٢٠٣ ، أرسل البابا رسلا من طرفه ومعهم خطاب منه إلى الصليبيين فى زارا ، وقد احتوى خطاب البابا على أمرين ، الأول : تأكيد بالعفو الممنوح لهم ، والثانى : أمر رسمى من البابا بألا يهاجم الصليبيين البيزنطيين إلا فى حالة واحدة فقط هى رفضهم امداد الحملة بالمؤن والزاد (٢) .

وقد أذيع الجزء الأول من الخطاب على الصليبيين ، أما الجزء الثانى فقد تدخل بونيفيس اوف مونتفرات ومنع اذاعته على الجيش الصليبى (٣) .

وهكذا أصبح غالبية الصليبيين لا يعلمون شيئا عن موقف البابا اينوسنت الثالث وتحذيره من هجومهم المنتظر على العاصمة البيزنطية . وفى ٧ ابريــل ١٢٠٣ رحل الجيش الصليبى عن زارا بعد أن قاموا بتخريب أسوارهــا وابراجها ، بينما تخلف فى زارا الماركيز بونيفيس والدوق داندولو فى انتظار وصول الامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس الذى سيصاحبهم فى حملتهــم ضد القسطنطينية .

وفى ٢٥ أبريل ١٢٠٣ وصل اليكسيوس إلى زارا فأستقبله الماركيز والدوق بترحيب كبير وفى ٤ مايو لحقوا بالجيش عند كورفو .

ويصف فيلهاردوين فرحة الصليبيين جميعا حينما علموا بوجود الامــير

(1) Pears : op. cit., p. 288.
(2) Innocent III : Epistolae, VI, p. 102.
(3) Pears : op. cit., pp. 289 — 290.

البيزنطى بينهم فى المعسكر وقدموا اليه يحيونه ويرحبون به ونصبوا خيمته فى وسط المعسكر بجوار خيمة قائد الحملة الماركيز بونيفيس الذى أوكل اليه الملك فيليب السوابى مهمة حماية اليكسيوس والاهتمام بأمره (١) .

عسكر الجيش الصليبى فى كورفو لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم غادروها ٤مايو ١٢٠٣ ، واتجهوا إلى جزيرة اندروس فأستقبلهم أهاليها بالترحيب وأعلنوا خضوعهم للأمير اليكسيوس فتركها الصليبيون واتخذوا طريقهم إلى ابيدوس فسلمها اليهم الاهالى ووضعوا بها حامية ، وفى ٢٣ يونيو ١٢٠٣ وصلــوا إلى سانت ستفان St. Stephin على بعد ثلاثة فراسخ من القسطنطينية .

اجتمع اللوردات البارونات من أجل التشاور فيما ينبغى عمله ، فأقترح عليهم دوق البندقيةأن يذهبوا إلى جزيرة خليقدونية Chalcedon المواجهـة للقسطنطينية على الضفة الاسيوية للبسفور ، ليتزودوا بالمؤن ثم بعد ذلكيذهبوا لحصار العاصمة ، وبناء على نصيحته توجهوا إلى خلقيدونية وبعد أن حصلوا على كل ما يحتاجونه من مؤن أبحروا فى اليوم الثالث إلى سكيوتارى Scutari على مضيقالبوسفور ،وبدأوا فرضالحصار البحرى على مدينةالقسطنطينية(٢) .

والواقع أن معظم الصليبيين المصاحبين للحملة كانوا يرون هذه المدينـة لأول مرة ، ومن ثمة فقد أصيبوا بالدهشة الممزوجة بالاعجاب لهذه المدينـة ذات الاسوار العالية والابراج التى تحيط بها من كل جانب ، وقصورهـا البالغة الثراء وكنائسها الشامخةواتساع المدينة الذى فاق— كما يقولفيلهاردوين —

(1) Villehardouin : op. cit., p. 27.
(2) Villehardouin : op. cit., pp. 29 -- 33.
أنظر خط سير الحملة الصليبية الرابعة فى الخريطة رقم (١) .

اتساع أية مدينة أخرى (١) . فان قاعدة المثلث الذى تقوم عليه المدينة كانت تقارب الخمسة أميال ، وكانت القسطنطينية تستطيع أن تفاخر كروما بتلالها السبع ، وكانت تلك التلال تنهض كالجدار على البوسفور والقرن الذهبى .

وعند بداية القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت القسطنطينية (٢) هى المدينة الرئيسية فى العالم الغربى ، وقد منحها هذا المركز كثير من المميزات ، منها موقعها الجغرافى ، فهى تقع عند نقطة التقاء قارتى أوروبا وآسيا،وتحيط المياه بالمدينة من جانبيها ، وكان مضيق البوسفور والدردنيل يمثلان ممـــران طبيعيان للتجارة ، مما جعل القسطنطينية مركزا تجاريا فريدا نتيجة لسيطرتها على طرق التجارة بين غرب أوروبا والبلادالواقعة على البحرالأسود وشواطىء بحر مرمرة .

وكان القرن الذهبى وهو الميناء الطبيعى للعاصمة محميا من أية تيـارات عنيفة ، كما كان نصفه عميقا لدرجة تسمح لأية سفينة كبيرة من الوصـول إلى الشاطىء بسلام ونصفه الآخر كان ضحلا وفسيحا لدرجة تكفل دخـــول المراكب الصغيرة . ولما كانت المياه تتدفق فى مضيق البوسفور نحو الشمال ونحو الجنوب ، فقد منح ذلك المدينة الجو الصحى الممتاز نتيجة لاستمرار تجدد الهواء .

وقد امتازت القسطنطينية بمجموعة ضخمة من المبانى الرائعة ، ومن أهمها الكنائس الفخمة بقبابها المرتفعة ، وقيل بأنه بلغ من كثرة الكنائس بها أنـه وجدت كنيسة على ناصية كل شارع ، ومنها على سبيل المثال كنيسة أيـا

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 31.

(٢) أنظر خريطة رقم (٢) لمدينة القسطنطينية وأهم معالمها .

صوفيا وكنيسة الرسل ، وكنيسة القديسة ايرين ، وكنيسة القديسة مارى ، والقديس سرجيوس ، والقديس توماس وغيرها. وكانت قباب هذه الكنائس مغطاة بالذهب ، كما كان بعضها يضم أعمدة من الذهب والفضة وثريات لا تعد من نفس هذه المعادن الثمينة .

أما مجموعة الآثار المقدسة التى حوتها هذه الكنائس فكانت على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة للمسيحيين فى كل مكان ، ويقول فيلهاردوين أن مجموعة الآثار الدينية الموجودة بالقسطنطينية تعادل فى كثرتها الآثار المقدسة الموجودة فى باقى أنحاء العالم المسيحى وكله بمجتمع .

والواقع أن الدافع وراء غنى القسطنطينية بهذه الآثار هو محاولة تخليصها من (العقدة) التى عانت منها بسبب افتقارها إلى مثل هذه الآثار ، لأن أحدا من الرسل لم يشرفها بالذهاب إلى موضعها أو الاستشهاد بالقرب منها ، أو تأسيس كنيسة بها ، فأين هى من بيت المقدس ، ذلك المركز الدينى الهام الذى لا يمكن أن تتطاول إليه أية مدينة مسيحية أخرى . وأين هى من انطاكية ، مدينة البطاركة العظام والمجامع الدينية العديدة ، وهى المدينة التى أطلق على الحواريين فيها لأول مرة اسم المسيحيين . وأين هى من روما التى شرفها القديس بطرس أمير الحواريين ببناء كنيسته بها وهى الكنيسة التى أصبحت فيما بعد تضم رفاته ؟ ان القسطنطينية ذاتها لم تؤسس إلا فى فترة متأخرة نسبيا فى القرن الرابع الميلادى .

ورغبة من الاباطرة البيزنطيين فى تخليص عاصمتهم من هذه العقدة ، فأنهم كانوا حريصين على جمع الاثار الدينية من مختلف البلاد ، وحفظها بالقسطنطينية

حتى يكسبها ذلك التشريف الديني الذى تفتقر اليه . ويروى التاريخ مواقف عديدة توضح مدى اهتمام الاباطرة بهذا الأمر .

فى عصر الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ — ٩٥٩) نازلت الجيوش البيزنطية مدينة الرها فى عام ٩٤٤ ، ويذكر المؤرخ يحيى الانطاكى «ان البيزنطيين التمسوا من أهلها ايقونة المنديل الذى كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه وصارت صورته فيه ، وبذل لهم الروم أنهم إذا سلموهم هذا المنديل اطلقوا من الاسارى المسلمين الذين بيدهم عددا ذكروه لهم» . ثم أوضح هذا المؤرخ أن أهل الرها وافقوا على طلب البيزنطيين بعد الرجوع إلى أولى الأمر فى بغداد ، وكيف أن البيزنطيين حملوا هذا المنديل فى موكب كبير إلى العاصمة البيزنطية حيث استقبله الامبراطور والبطريرك والشعب استقبالا حافلا ، وحمل هذا المنديل إلى كنيسة آياصوفيا ، ثم إلى كنيسة العذراء الملحقة بالقصر الامبراطورى الكبير Vierge du-phare ليحفظ بها (١) .

ويروى نفس المؤرخ حادثة أخرى ، وهى حرص الامبراطور نقفور فوقاس على أخذ القرميدة التى تحمل آثار وجه السيد المسيح من مدينة منبج فى عام ٩٦٦ م ، وحين أخرجها اليه أهلها لم يعرض لهم بمكروه (٢) .

أما الامبراطور يوحنا تزيمسكس (٩٦٩ — ٩٧٦) فقد أعلن بكل فخر

---

(١) يحيى الأنطاكى : التاريخ ، ص ٩٨ — ٩٩ .

Walter (g) : La Ruine de Byzance, ed. Albin Michel Paris, 1958, P. 143.

(١) يحيى الأنطاكى : التاريخ ، ص ١٢٧ .

واعتزاز حصوله على عدد من الآثار المقدسة الهامة أثناء غزوته لبلاد الشام فى عام ٩٧٥ م ، فقال فى خطابه إلى آشوط الثالث ملك أرمنيا المسيحى :

«.. أننا عثرنا فى جبله على النعلين المقدسين اللذين سار بهما المسيح حينما ظهر على الأرض ، كما وجدنا ايقونة المخلص — المسيح — تلك التى كان قد طعنها اليهود فسال منها فى التو دم وماء . ولكننا لم نلحظ فى هذه الايقونة طعنة الحربة . ووجدنا كذلك فى المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول وهو شىء نفيس . وبعد أن جمعنا هذه المخلفات ، حملناها معنا لنحتفظ بها فى مدينتنا — القسطنطينية — التى يكلأها الرب برعايته (١) .

هذا وقد أوضح الراهب انطوان Antoine الذى أصبح فيما بعد رئيس اساقفة نوفجورود Novgorod والذى زار القسطنطينية فى أوائل القرن الثالث عشر وقبل فتح الصليبيين لها بثلاث سنوات ، قيمة واماكن الآثار الدينية الموجودة بالعاصمة البيزنطية بمنتهى الدقة . وعلى سبيل المثال ، فان آثار المسيح منذ مولده موجودة بصفة خاصة فى كنيسة أيا صوفيا ففيها يوجد لفائف (أقمطة) المسيح وهو طفل ، وأوانى الذهب المملوءة بالهدايا التى احضرها الأهالى للطفل يسوع . وقميصه ووشاحه وحزامه وعصاه ونعليه ، وقطعة من الخشب كان المسيح يعلقها فى عنقه ، وحوض غسل بداخله اقدام تلاميذه (الحواريون) . والمنضدة التى تعشى عليها فى خميس الاسرار ، وخشب الصليب والمنشار والمسامير ، وتاج الشوك والحربة والدم المقدس ، وبلاطة من القبر المقدس (٢) .

(١) أنظر نص الرسالة فى المرجع التالى :
عمر كمال توفيق : يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ، الملحق رقم (١).
ص ١٧٠ -١٧١ .

(2) Walter : La Ruine de Byzance, p. 144.

وهناك مجموعات أخرى من الآثار المقدسة ضمتها بعض الكنائس (١) ، ولم يكن ينقض قرن حتى تضاف مجموعات جديدة ، كما حرص البيزنطيين على نقل رفات القديسين إلى عاصمتهم ، فاحضرت هيلين والدة الامبراطور قسطنطين الاكبر ، رفات القديس دانيال ، ووصلت للعاصمة رفات القديسين تيموثى واندراوس ولوقا فى عهد الامبراطور قنسطانز (٣٣٧ — ٣٥٠) . وأحضرت رفات القديس صموئيل فى عهد الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ — ٤٠٨) ، واشعيا فى أيام ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠) ، والقديسة آن فى أثناء حكم جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ، ومريم المجدلية فى عهد ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) (٢) .

وإلى جانب الكنائس كانت هنـاك القصور ، الفخمة منهـا القصر الامبراطورى الكبير الذى يسمى البوكوليون Bucoleon نسبة إلى مرفأ القصر المسمى بذلك الأسم ، وكان هذا القصر عبارة عن مجموعة كبيرة من المبانى وقاعات الاجتماعات والمحاضرات والحمامات وأجنحة السكن التى شادها اباطرة مختلفون ، فقد بنى به الامبراطور ثيوفيل قاعة الاستقبال الشهيرة Triconchus واضاف اليه باسيل الأول اضافات عديدة ، على حين انشأ به نقفور فوقاس جناحا عند شاطىء البحر .

اما القصر الجديد المسمى Blachernae الذى بناه الامبراطور مانويل كومنينوس فكانت حيطانه وأعمدته مغطاه بالذهب الخالص ، وكان العرش

---

(١) بخصوص المزيد من التفاصيل عن هذه الآثار وأماكن تواجدها أنظر المرجع التالى :
Walter : op. cit., pp. 144 — 145.

(2) Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 215 — 216.

فى هذا القصر من الذهب ومحلى بالاحجار الكريمة ، اما التاج الامبراطورى المعلق عليه فكان من الذهب ومرصع بالجواهر التى لا تقدر بثمن .

وكان الميدان الامبراطورى أو .. Augusteom يضم كنيسةآياصوفيا والقصر الامبراطورى الكبير ومحاط بصفين من الأعمدة ، وفى مواجهة الكنيسة يقوم فوق قاعدة من البرنز تمثال للامبراطور هرقل بحجم ضخم ، ويده اليمنى ممدودة بحركة تهديد نحو الشرق ، بينما يده اليسرى تقبض على كره رمزا للسيادة العالمية (١) .

وبالقرب من الكنيسة والقصر الكبير كان يقع الهيبودروم أو ميدان السباق ، وهو مبنى ضخم فسيح يتسع لجلوس ما يقارب الأربعين ألف شخص وكان فى الامكان الوصول من القصر مباشرة إلى المقصورة الامبراطورية بهذا الملعب ، وكان الهيبدروم هو مركز الحياة الاجتماعية والسياسية فى العاصمة وكانت أعظم تسلية للأهالى هى مشاهدة الالعاب بهذا الملعب والصراع مع الحيوانات وسباق العربات ، وكانت مشاهدة العاب السيرك مجانية تتكلفها الحكومة .

وكان فى الهيبودروم عمود قسطنطين وهو عمود من الحجارة اقامه الامبراطور قسطنطين ، وكذلك مسلة فرعونية قائمة على قاعدة من الجرانيت تمثل فن النحت البيزنطى . ومازالت بعض آثار الهيبودروم باقية حتى اليوم (٢) .

وكان أجمل احياء الحوانيت يقع داخل المدينة ، فعلى امتداد الرابية الرئيسية وابتداء من مدخل القصر الكبير وميدان السباق إلى امتداد ميلين كان

---

(١) أنظر الصورة رقم (٢) .

(٢) رأيت هذه الآثار بمدينة اسطنبول أثناء زيارتى لها فى أغسطس ١٩٧٧ ، والتقط لها بعض الصور ، أنظر مجموعة الصور رقم (٣) .

يمتد نحو الغرب الشارع المسمى بالشارع الاوسط Mese وهو شارع واسع تحف به من جانبيه العقود (البواكى) ، ويمر من خلال سوقين Forums احدهما سوق قسطنطين الملاصق للقصر ، والآخر سوق ثيودوسيوس الأكثر منه اتساعا . وفى النهاية يتفرع إلى شارعين رئيسيين احدهما يسير مخترقا سوق الثور واركاديوس إلى الاستودوم والبوابة الذهبية ، بينما يمر الآخر امام كنيسة الرسل المقدسين إلى قصر بلا كرناى والبوابة الخاريسيانية .

وكانت تقوم على جانبي بواكى شارع الوسط أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع تبعا لما تبيع من سلع ، فصاغة الذهب أولا يليهم صاغة الفضة ثم بائعو الثياب والأقمشة وصناع الأثاث وهكذا . وكانت اغنى هذه الحوانيت تقع بالقرب من القصر الكبير عند حمامات زيوكسيبوس .. Zuexipus حيث كان المركز التجارى لسوق الحرير الضخم المعروف باسم دار الانوار لأن نوافذه كانت تضاء ليلا .

ويقول المؤرخ الاسبانى بنيامين اوف توديلا الذى زار القسطنطينية فى ١١٦١ أنه وجدها تعج بالتجار الذين أتوا اليها من البر والبحر من مصر والعراق وفلسطين وروسيا وهنغاريا ولومبارديا واسبانيا ومن كل الأقطار فى العالم .

وقد تمتع معظم أهل القسطنطينية بالثراء ، وكانوا يرتدون الملابس الموشاه بالذهب والاحجار الكريمة ، ويمتطون خيولهم ويبدون فى مظهرهم هـذا كالأمراء . وكان اثرياء العاصمة يمتلكون الفيلات على شواطىء البوسفور وبحر مرمرة ، حيث يقضون بها فصل الصيف .

وكما كانت القسطنطينية مدينة الأعمال ، فأنها كانت كذلك مدينة اللهـو والمسرات ، كانت أشبه ما تكون فى عصرنا الحاضر بباريس ولندن ، حيث

كان يذهب اليها الاثرياء من باقى البلاد لينعموا فيها بقسط من الراحةوالرفاهية ومختلف أنواع المتع الحسية والفنية . ووجدت بها جميع أنواع البضائع إلى جانب تمتعها بالجو اللطيف والمناظر الطبيعية الخلابة (١) .

وهكذا فرض الصليبيون الحصار على هذه المدينة العظيمة من أجل استعادة عرشها لحليفهم ووالده الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس . وحين رأى الامبراطور اليكسيوس حصار الصليبيين للمدينة أرسل إليهم رسولا من طرفه ، وهو أحد اللومبارديين ويدعى نيقولاروكس ، Nicholas Ronx الذى خاطب الصليبيين قائلا : «سادتى ، ان الامبراطور اليكسيوس يود ان يوضح لكم انه يعلم جيدا انكم أحسن العناصر ، وجئتم من أحسن الاقطار على وجه الأرض ، وهو يعجب كثيرا ويتساءل ، لماذا ، ولأى غرض اقتحمتم أرضه ومملكته ؟ فهو مسيحى وانتم مسيحيون . وهو يعلم جيدا انكم فى طريقكم لتحرير الاراضى المقدسة والصليب المقدس وأورشليم . إذا كنتم فقراء ومحتاجون ، فأنه يرغب حقا فى أن يمنحكم المال والزاد بشرط أن تغادروا أراضيه فورا . وهو لا يريد أن تقوموا بأى عمل تخريبى ، لأنه صاحب القوة المطلقة هنا ، ترون ذلك لو أن عددكم اضعاف ما أنتم عليه عشرون مرة . واذا

---

(١) فيما يتعلق بالقسطنطينية وميزاتها أنظر المراجع التالية :

Miller (D) : Imperial Constantiople, U S A, 1969, pp. 1 — 197,
Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 179 — 222.
Brehier(L) : La civilisation Byzantine Edition Albin Michel, Paris, 1970. pp. 73 — 99.
Toynbee (A); Constontine Porphyrogenetus and his world, london, 1773, pp. 201 — 223.
Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, Paris, 1928, pp. 104 — 120.

أراد الحاق الأذى بكم ، فلن تستطيعوا الفرار بدون الهزيمة الكاملة» (١) .

وقداختار البارونات ودوق البندقية أحد الفرسان ويدعى Conon of Bethune لما توسموه فيه من عقل راجح وحكمة لكى يتولى الرد على هذا الرسول ، فقال موضحا وجهة نظر الصليبيين : «سيدى ، لقد قلت لنا ان مولاك يعجب كثيرا لماذا سادتنا والبارونات دخلوا إلى أرضه ومملكته ، انهم لم يدخلوا أرضه هو ، لأنه اغتصب هذه الأرض ظلما وعدوانا ، وضد الله وضد الحق . انها تخص ابن شقيقه — الامبراطور اسحاق — الذى يجلس بيننا على العرش . اذا رغب سيدك فى أن يرد لابن شقيقه تاجه وامبراطوريته ، ويلقى بنفسه تحت رحمته ، عندئذ سنتوسل لابن شقيقه لكى يصفح عنه وأن ينعم عليه بالقدر الذى يمكنه من العيش ميسور الحال ، واذا أنت لم تجبنا على هذه الرسالة ، فلاتجرؤ على العودة إلى هنا ثانية» (٢) .

استقر رأى البارونات على أن يظهروا الأمير اليكسيوس إلى أهالى القسطنطينية طمعا فى أن ينضموا إلى جانبه ضد عمه الامبراطور ، وبالفعل اعتلى الأمير ظهر احدى السفن الحربية ومعه الماركيز بونيفيس ودوق البندقية واقتربوا كثيرا من أسوار العاصمة ، غير أن ظنهم قد خاب ، فبدافع من الخوف من الامبراطور لم يجرؤ أحد من الأهالى على رؤيته ، فعاد الأمير ومن معه إلى الجيش مرة أخرى . ولم يجد الصليبيون بدا من اقتحام العاصمة ، فقسموا الجيش إلى سبع فرق ، وكانت أكبر الفرق تحت قيادة الماركيز بونيفيس ، وبعد جهود مضنية تمكنوا من قطع السلاسل الحديدية الضخمة

(1) Villehardouin : op. cit., p. 35.
(2) Villehardouin : op. cit., p. 25.

التى تغلق ميناء القسطنطينية وأصبحوا داخل الميناء حيث هاجموا المدينـة برا وبحرا ، وتعرض للهجوم قصر بلاكرناى Blachernae وهو أحد القصور الامبراطورية .

وفى صباح ١٧ يوليو ١٢٠٣ بدأت معركة رهيبة بين الطرفين استـولى خلالها الصليبيون على ٢٥ برج من ابراج العاصمة والتحموا مع المدافعين عنها فى قتال عنيف ، وكان الامبراطور اليكسيوس ذاته يقود المعركة ، وتلى ذلك معارك أخرى (١) ، وقد أدرك الامبراطور تفوق الجانب الصليبى وعـدم جدوى الدفاع ، فجمع كل ما استطاع من مجوهرات وأموال وفر ليلا مع عدد من أتباعه ، وحين علم الأهالى بفراره ذهبوا إلى الامبراطور السابق اسحاق فى سجنه ، واخرجوه منه وحملوه إلى قصر بلاكرناى ، حيث أجلسوه على العرش ، وبمجرد عودته إلى عرشه أرسل إلى جيش الصليبيين يخبرهم بذلك .

اجتمع الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات مع البارونات واخبرهم بذلك ثم ابلغوا الأمير اليكسيوس ففرح فرحا عظيما ، وقد استقر رأى الصليبيين على عدم السماح للأمير بالعودة إلى والده إلا بعد أخذ موافقة الامبراطور اسحـاق على كل ما تعهد به ابنه للصليبيين مقابل استرداد العرش البيزنطى ، فأرسلوا بأربعة رسل اثنين من البنادقة واثنين من الصليبيين كان احدهما هو جيوفـــرى فيلهاردوين ، وفتحت لهم بوابة القسطنطينية ووصلوا إلى قصر بلاكرنـاى حيث قابلوا الامبراطور اسحاق ، واخبروه بتفاصيل الاتفاق السابق مع ولده اليكسيوس وطلبوا منه المصادقة عليه . وبعد أن أوضح الامبراطور رأيـه فى

(١) يوجد وصف تفصيلى لهذه المعارك فى المصدر التالى : —
Villehardouin : op. cit., pp. 35 — 45.

هذا الاتفاق وشروطه القاسية ، شكر الصليبيين على هذه الخدمة التى قدموها له ولأبنه وصادق على الاتفاق .

وهكذا اطمأن الصليبيون بالتزام الامبراطور اسحاق بتنفيذ شروط الاتفاق وسمحوا للأمير بدخول عاصمته ، فقاده البارونات حتى اوصلوه إلى بوابة العاصمة حيث استقبله والده بفرحة عارمة بعد أن طال فراقهما . وفى اليوم التالى خرج الامبراطور اسحاق وأبنه اليكسيوس إلى الجيش الصليبى خارج البوابة وقابلوهما ، وسمحوا للصليبيين بدخول العاصمة لمشاهدتها ، ولكن فى مجموعات صغيرة .

وفى أول أغسطس ١٢٠٣ توج الأمير اليكسيوس امبراطورا مشاركا فى العرش مع والده اسحاق . وبعد تتويجه ذهب الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى الجيش الصليبى حيث أوضح للبارونات عجزه فى الوقت الحالى عن دفع ما اتفقوا عليه وطلب منهم أن يمهلوه حتى شهر مارس من عام ١٢٠٤ ، وتعهد بأنه سيتحمل نفقاتهم طوال هذه المدة . وبذلك نجح فى اقناع البارونات ودوق البندقية برأيه فوافقوا على الانتظار (١) .

قرر الامبراطور اليكسيوس الرابع القيام بجولة فى بعض ولايات الامبراطورية لتفقدها واقرار سلطته عليها . وقد رافقه فى هذه الجولة الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وعدد من البارونات فى حين بقى عدد آخر منهم مع الجيش الصليبى لحراسة المعسكر ، وأثناء غياب الامبراطور اشتعل العراك داخل العاصمة بين اللاتين المقيمين بها والبيزنطيين الذين ساءهم تدخل هذا العنصر البغيض فى أمورهم ، واشعل بعض الأشخاص المجهولين النار فى المدينة

(1) Villeharduoin : op. cit., pp. 54 — 50.

وسرعان ما انتشرت بشكل مخيف حتى أصبح من العسير اطفاؤها ، وقد استمرت على هذا النحو يومين وليلتين التهمت خلال هذه المدة الكثير من الكنائس والقصور والمتاجر وامتدت حتى شاطىء البحر ، وقد احترق فيها عدد كبير من النساء والرجال والأطفال والشيوخ ، وبعد أن خمدت النيران لم يجرؤ اللاتين المقيمين بالقسطنطينية على البقاء بها خوفا من تعرضهم لأنتقام البيزنطيين . فحملوا زوجاتهم وأطفالهم وما تبقى من ممتلكاتهم وغادروا العاصمة وانضموا إلى جيش الصليبيين .

عاد الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى العاصمة ، وعلم بالحريق الذى اشتعل بها أثناء غيابه والخسائر التى اسفرت عن هذا الحريق ، كما أنه كان يعلم بمدى كراهية رعاياه لهؤلاء اللاتين ، لذلك وفى محاولة لكسب شعور البيزنطيين بدأت معاملته للاتين تتغير وأصبح (يتعالى) عليهم . على حد تعبير فيلهاردوين ، فلم يعد يزور معسكرهم كما كان يفعل سابقا . وظلت المبالغ التى يدفعها لهم تتضاءل وتنقص حتى انقطعت فى النهاية . وقد دهش اللاتين لهذه المعاملة بعد كل الخدمات التى قدموها له ، وذهب إليه قائد الجيش الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وأوضح له وجهة نظر الصليبيين ودهشتهم من تصرفاته هذه ، وأخيرا تأكد الصليبيون أنه يضمر لهم الشر وأنه لن ينفذ ما اتفقوا عليه ، عند ذلك ارسلوا اليه رسلهم ، وكانوا ستة أشخاص من بينهم فيلهاردوين ليوضحوا له أنه إذا لم يلتزم بتنفيذ الاتفاق فأنهم لن يعاملوه كصديق بعد ذلك وانما سيحصلوا على حقهم بالقوة . وقد دهش الامبراطور الكسيوس وحاشيته لهذه الجرأة إذ لم يحدث من قبل أن تم تهديد الامبراطور البيزنطى داخل بلاطه (١) .

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 50 — 53.
Clari : op. cit., pp. 56 — 58

وكمحاولة أخيرة أرسل دوق البندقية انريكووانـدولو فى استدعاء الامبراطور اليكسيوس ودارت بينهما محادثة أوردها روبرت كلارى وكانت كالتالى :

"Alexe, que Cuides tu faire ?"Fist Lidux "freng warde gue nous t'avons gete de grant caitivete, si t'avons fait seigneur et corone a empereur:¥ ne nous tenras tu mie" fist li dux, " "nos convenenches, ne Si n'en feras plus?- Naie fist liempereres "jen'en ferai plus que fait enai I - Non? "dist li dux, "garchons malvais nous t'avons" List li dux, "gete de le merde et le merde te remeterons, et je te desfi et bien saches saches tu que je te pouiwacacherai mal a men pooir de ches pas enavant.' '(1)

والترجمة العربية لهذه المحادثة هى :

قال الدوق «يا إليكسيوس ما الذى تعنيه بما قلت ؟ هل فكرت كيف انقذناك من الشقاء العظيم . وكيف جعلناك سيدا ، وتوجناك امبراطورا ، فهل رعيت عهدك معنا ، وهل اعتزمت تنفيذ شيء أكثر مما فعلت ؟ «فقال الامبراطور لا . أننى لن أفعل شيئا أكثر مما فعلت» . فقال له الدوق «اتقول لا أيها الغلام السيء ، لقد كنا نحن الذين رفعناك من هاويه القذارة وسنعيدك اليها مرة أخرى ، وأننى لمتحديك ومنذرك لتعلم علم اليقين أننى منذ هـذه اللحظة فصاعدا سألحق بك من الأذى كل ما استطيع » .

ظهر العداء سافرا بين الصليبيين والبيزنطيين ، وبدأت المناوشات بينهما ، وقد اشعل البيزنطيون النار فى بعض السفن الرأسية بالميناء وإنتشرت النيران

(1) clari : la conquete de constantinople, p. 59

حتى بدا (وكأن العالم كله يحترق) وأصيب الصليبيون بالذعر خوفا على مراكبهم ، ولكن بعد أن نجحوا فى إخماد النيران أتضح ان السفن المحترقة هى سفن تجارية بيزية كانت راسية بالميناء ، ولم يصب أسطول الصليبيين بضرر كبير (١) .

فى تلك الأثناء أصبح البيزنطيون مقتنعين بضرورة التخلص من هـذا الامبراطور الذى كان السبب فى استدعاء اللاتين وإتاحة الفرصة لهم للتدخل فى شئونهم الداخلية وكل ما ترتب على ذلك من متاعب . فألتفوا حول أحدهم ويدعى مورزوفلوس Mourzu Phlus وكان محبوبا من الأهالى . وفى أحد الليالى قبض مورزوفلوس على الامبراطور اليكسيوس وسجنه ، وأعلن مورزوفلوس امبراطورا فى كنيسة آيا صوفيا ، وحين علم الامبراطور اسحاق بأن ابنه قد أبعد عن العرش وأودع السجن ، مرض ولم يلبث إلا قليلا حتى توفى ، أما اليكسيوس فقد لقى حتفه بعد أن دس له مورزوفلوس السم فى الطعام باعتلاء مورزوفلوس للعرش البيزنطى لم يعد هناك أى أمل للصليبيين فى الحصول على حقهم أو تنفيذ أى شروط التزم بها قبلهم الامبراطور السابق اليكسيوس الرابع ، لذلك لم يعد هناك مفر من الإلتجاء للقوة . فعقدوا فى آخر مارس ١٢٠٤ م . اتفاقا بينهم وبين البنادقة ونص هذا الاتفاق على أنه فى حالة سقوط المدينة يقتسموا بالنصف كل ما يحصلون عليه منها من الغنائم والاسلاب وأن يختاروا ستة أشخاص من الصليبيين ، وستة أشخاص من البنادقة ، ويقسم هؤلاء جميعا على الآثار المقدسة أن ينتخبوا من بينهم الرجل الأصلح ليتوج امبراطورا ويتولى حكم الامبراطورية البيزنطية ، ويحصل هذا الأمبرطور

---

(1) villeharduoin : op. cit., p. 54.
clari : op. cit., pp. 59 — 60.

على ربع ما يتم فتحه داخل العاصمة وخارجها ، ويمتلك كذلك القصرين الامبراطورين . Bucoleon و ... Blachernae . أما الثلاثة أرباع الأخرى فتقسم بالتساوى بين الصليبيين والبنادقة . وأن يتم اختيار أثنى عشر شخصا من الصليبيين ومثلهم من البنادقة وهؤلاء الأربعة وعشرون شخصا يقومون بتوزيع الاقطاعات ومناصب الشرف ، ويرتبون من يقوم على خدمة الامبراطور (١) .

وبناء على ذلك ، بدأ حصار الصليبيين للقسطنطينية فى ٨ أبريل ١٢٠٤ وتقاتلوا مع المدافعين عن ابراج المدينة وتمكنوا من الاستيلاء على بعض هذه الابراج وعن طريقها تدفقوا إلى داخل العاصمة ،وحين رآهم الامبراطور مورزوفلوس فر هاربا عن طريق البوابة اللذهبية فأستولى على خيمته الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وسقطت القسطنطينية فى يد الصليبيين والبنادقة فى يوم الاثنين ١٢ أبريل ١٢٠٤ (٢) .

دخل الصليبيون إلى العاصمة البيزنطية كالجراد المنتشر ، حيث اشعل بعضهم النيران فيها ؛ وكان هذا ثالث حريق تتعرض له العاصمة البائسة ، منذ أن جاء إليها اللاتين مع الأمير اليكسيوس انجيلوس ، وقد أتت النيران على الكثير من المنازل ، وقدر المؤرخ فيلهاردوين عدد المنازل التى احترقت فى هذا الحريق وحده ، بأنها تماثل عدد المنازل التى تحتويها ثلاث مدن كبيرة من مملكة فرنسا (٣) آنذاك . ثم انطلقوا يقتلون كل من صادفهم من البيزنطيين

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 58 — 59; clari; op. cit., p. 68.

(2) Ibid : pp. 61 — 62.

(3) Villehardouin : op. cit., p. 64.

حتى أصبح من العسير حصر عدد القتلى . ثم جاء دور النهب الذى لم يقف عند أى حد ، حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من النهب والسلب ، ويكفى للتدليل على ذلك ما فعله الصليبيون بكنيسة آيا صوفيا ، فقد اقتحموها وهم سكارى فمزقوا الستائر والبسط والمفروشات وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم وحطموا الايقونات الفنية النادرة ، وإذا كان هذا شأنهم مع الكنائس ، فلم يكن غريبا أن يحرقوا الجامع الذى كان للمسلمين بالقسطنطينية وهو الجامع القديم الذى بنى فى عصر الامبراطور ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١) .

ولعل ما جاء فى خطاب البابا اينوسنت الثالث إلى الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات يعطى صورة أكبر للفظائع التى ارتكبها الصليبيون ضد العاصمة البيزنطية وأهاليها . (١)

ويوضح لنا شاهد عيان هو روبرت كلارى ما حدث بعد ذلك فيقول : «صدر الأمر بعدئذ بجمع كل الغنائم فى كنيسة معينة من كنائس المدينة فجىء بها إليها واختاروا عشرة فرسان من كبار الحجاج وعشرة من البنادقة ممن توسموا فيهم الأمانة وأقاموهم حراسا على هذه الثروة ، وهكذا جاءوا بالغنائم وكانت عظيمة جدا فكان بها كثير من الأوعية الذهبية والفضية الغالية الثمن ، والملابس المطرزة بالذهب وكثير من المجوهرات الثمينة ، فكان ما جمع هناك منظرا رائعا عجيبا ولم يحدث قط — منذ بداية العالم — أن رأت العين أو غنم قوم مثل هذه الغنيمة الغالية العظيمة ، بل لم يحدث ذلك زمن الاسكندر أو شرلمان ولا قبلهما ولا بعدهما ، ولا أظن أنا شخصيا ، أنه توفر فى أغنى مدن العالم الأربعين من الثروة ما توفر بالقسطنطينية وما عثروا عليه بها ، إذ يقول اليونان أن ثلثى كنوز

(١) أنظر ترجمة الخطاب فى خاتمة هذا البحث ص ص ١١٢—١١٣ .

العالم موجودة فى القسطنطينية . أما الثلث الباقى فموزع فى بقية الدنيا ، حتى أن نفس الأشخاص الذين عهد اليهم بالحراسة أخذوا كل ما طمعوا فيه من الحلى الذهبية وامتدت يدهم بالسرقة إلى هذه الثروة وإلى كل ما وجدوه ، وأخذ كل رجل غنى ما طمع فيه من الحلى الذهبية أو الأقمشة الحريرية والمذهبة وسواها وانطلق به ، وبهذه الطريقة شرع الكبار فى سرقة الغنائم حتى لم يبق شىء يتقاسمونه مع عامة الجيش من الحجاج أو الفرسان الفقراء أو العسكر الذين عاونوا فى كسب هذه الغنائم .

أقول لم يبق شىء لمقاسمته مع هؤلاء سوى الفضة المجردة كالأوعية الفضية التى اعتادت نساء المدينة حملها معهن إلى الحمامات .

أما الأسلاب الأخرى التى بقيت فقد اختفت بطرق شريرة كما اخبرتك لكن أخذ البنادقة — على أية حال — النصف المقرر لهم ، أما الأحجار الكريمة والثروة الكبيرة التى بقيت لتقسم فقد نهبت بأساليب أخرى كما سأقص عليك فيما بعد» (١) .

أما شاهد العيان الآخر وهو جيوفرى فيلهاردوين ، فقد قال أن الغنائم التى أخذها الصليبيون بعد فتحهم القسطنطينية كانت من الكثرة لدرجة يمكن معها القول أنه ليس لها نهاية ، من ذهب وفضة وأحجار كريمة وحرير وفراء ويشهد فلهاردوين على أنه منذ الخليقة لم تؤخذ غنائم من مدينة قط مثلما أخذ من القسطنطينية فشبع من الصليبيين من كان جائعا ، واغتنى منهم من كان فقيرا . (٢)

---

(1) Clari : La conquete de constantinople p.p, 80 — 81.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 65.

وهكذا لم يقع بصر الصليبيين على تحفة أو ثروة إلا نهبوها ولم يتركـوا أثرا فنيا أو أدبيا إلا افسدوه ودمروه . وقد بات الصليبيون وهم فى فــرح وسرور وشكروا الله الذى منحهم النصر وهم حوالى ٢٠ ألف رجل ، عـلى ٤٠٠ الف رجل بيزنطى «والأكثر من ذلك على المــدينة العظيمة الشديدة التحصين» . (١)

أما الجانب الآخر المهزوم ، المغلوب على أمره ، وأعنى به البيزنطيين ، فأنهم باتوا ينوحون ويرثون مدينتهم الحبيبة ، مثلما رثاها مؤرخهم المعـاصر نقيتاس خونياتيس بقوله (٢) :

Ourbs, urbs, urbium omnium oculo ,Per orbem Terrarmu celebris mater, Princeps religionis, rectae sentehtiae dux, eruditionis alumna, Omnis Pulchritudinis diversorium, itahe ex mahu domini calicem Puroris bibisti. Itahe pars extitisti ignis multo Vehemehtioris eo quo olim pentapolis divinitus conflagravit.

«أيتها المدينة ، المدينة ، يا خير المدائن ، يا حديث العالم ، يا منـــار الأرض ، يا حامية الكنائس ، يا سيدة الايمان ، يا قلعة العلم ، يا ملاذ كـل الخير ، لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس غضب الله ، ولقد حل بك اتون ابشع من ذاك الذى انصب لظاه قديما على المدائن الخمس» .

وقد تمنى خونياتيس ، لو أن مدينتهم كانت قد وقعت فى يد المسلمين «الذين كانوا لطفاء ورحماء» حين فتحوا بيت المقدس ، ولم يفعلوا بها مثلما فعله هؤلاء المخلوقات «الذين يحملون صليب المسيح على اكتافهم» (٣) .

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 65.
(2) Choniates : Historia, ed. Bonn, p. 763.
(3) Choniates : Hqtoria, ed. Bonn, pp. 761 — 762.

بعد ان انتهت موجة النهب والسلب التى اجتاحت القسطنطينية كان على الجميع مهمة اختيار امبراطور لاتينى يحكم الامبراطورية البيزنطية ، وهنا عاد الفاتحون إلى الاتفاق السابق بينهم . فكونوا لجنة من أثنى عشرة شخصا ، ستة من الصليبيين وستة من البنادقة لاختيار أحدهم ، وكانت المنافسة شديدة بين الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات ، وبين الكونت بلدوين اوف فلاندرز وهينولت .

وبلدوين هذا يعد واحدا من أكبر السادة الاقطاعيين الفرنسيين ، ولد فى عام ١١٧٢ ، ووالده هو بلدوين الخامس كونت هينولت ، الذى تزوج فى عام ١١٦٩ من مارجريت شقيقة فيليب الالزاسى كونت فلاندرز . وقد توفى فيليب فى مدينة عكا عام ١١٩١ دون أن ينجب وريثا ، فآل أقليم الفلاندرز إلى شقيقته مارجريت ، التى توفيت هى الأخرى فى ١١٩٤ ، وبذلك ورث ابنها بلدوين أقليم فلا ندرز . وحين توفى والده بلدوين الخامس فى ديسمبر ١١٩٥ آل إليه أقليم هينولت أيضا ، وبذلك جمع بلدوين الأبن بين حكم أقليمى الفلاندرز وهينولت . وكان الكونت التاسع على الأقليم الأول ، والكونت السادس على الأقليم الثانى .

وقد ساهم بلدوين بنصيب كبير فى الصراع الذى اشتعل فى الغرب الأوروبى بين ملوك فرنسا وانجلترا والمانيا حتى اشتراكه فى الحملة الصليبية الرابعة (١) .

وهكذا اشتعلت المنافسة على منصب (الامبراطور) بين كل من بونيفيس اوف مونتفرات ، وبلدوين اوف فلاندرز وهينولت ، وكان الأول يتفوق

---

(1) Wolf : Studies in The Latin Empire of Constantinople, Lanbon 7691 Book IV, pp. 281 — 288.

على الثانى بما له من قوة الشخصية وقيادة الجيش الصليبي وصلات عائلتـه ببيزنطة .

ومن ثم فقد أخذ بونيفيس يهيء نفسه لهذا المنصب ، فأستولى على القصر الامبراطورى الكبير Boukoleon وتزوج من مارجريت (ماريا) الهنغارية أرملة الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس ، وقد اعتبره البيزنطيون حاكمهـم الجديد وحين كانوا يقابلون اللاتين فى الطريق كانوا يصيحون الماركيز هـو الامبراطور المقدس Aiios Phasilcos Marchio لكن بونيفيس أدرك أنه لن يستطيع السيطرة على لجنة الانتخاب لأن ثلاثة فقط من الصليبيين الستة كانوا يؤيدونه ، فى حين أن الثلاثة الآخرين مضافا اليهم الستة من البنادقة كانوا يؤيدون منافسه بلدوين . فقد كان الدوق داندولو يخشى من قـوة شخصية بونيفيس وكان يفضل ان يكون الامبراطور الجديد أضعف شخصية وأقل أهمية حتى يسهل السيطرة عليه ، أضف لذلك أن بونيفيس كان حليفا قديما لجنوا ، وهذا وحده سببا كافيا لكى يعمل الدوق بكل قواه ونفوذه على ابعاد بونيفيس عن هذا المنصب .

وفى منتصف ليلة ٩ مايو ١٢٠٤ أعلن نيفلون اسقف سواسون الذى كان عضوا فى لجنة الانتخاب، اختيار بلدوين كونت فلاندرز وهينولت امبراطورا وفى ١٦ مايو تم تتويجه فى احتفال مهيب فى كنيسة آيا صوفيا واتخذ لقب :

porphyrogenitus, Semper Augustus (١)

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 67 — 68; Clari : op. cit., pp. 93 — 94

Wolf (R) ; Studies in The LatinEmpire of Constantinople, pp. 188 — 190.

أما بالنسبة لمنصب بطريرك كنيسة القسطنطينية ، فقد كان أحد الشروط الهامة للطرفين فى اتفاقهم قبل اسقاط العاصمة البيزنطية ينص على التالى :—

«الجانب الذى لم يختار منه الامبراطور ، يكون لديه السلطة لكى ينصب رجل دين على كنيسة آيا صوفيا ، ويختار كبطريرك من أجل خدمة الرب ، والكنيسة الرومانية المقدسة للامبراطورية» (١) .

وبعد اختيار لجنة الانتخاب لبلدوين اوف فلاندرز من الجانب الصليبى كامبراطور ، أصبح اختيار بطريرك كنيسة القسطنطينية من نصيب البنادقة . فأجتمع رجال الدين منهم فى كنيسة آيا صوفيا ، واختاروا توماس موروسينى Thomas Mauroceni لهذا المنصب .

وكان توماس ينتمى إلى عائلة نبيلة هى عائلة موروسينى التى يرجع أصلها إلى مانتوا Mantua ولم يكن موجودا بالقسطنطينية وقت انتخابه . والوصف الوحيد الذى جاء عن توماس كان لنقيتاس خونياتيس المؤرخ البيزنطى الذى رآه بالقسطنطينية فى نهاية صيف عام ١٢٠٥ م . ، والذى يعكس لنا وجهة نظر البيزنطيين فى أول رجل كاثوليكى يتولى رئاسة كنيستهم الارثوذكسية .

=

Nicol : The Fourth Crusade and The Greek and Latin Empires, 1204—1261, n C.M.H. ed. Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, part. 1,p. 286.

Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, p. 179.

Walter : La Ruin de Byzance, pp. 150 — 151.

(1) Wolf : Studies in the Latin Emp re of Constantiople, Book IX, p. 227.

قال نقيتاس : ان توماس كان فى منتصف العمر ، سمينا (مستديرا مثل الكرة ، ضخما مثل خنزير معلوف) ، أجرد ، يضع خاتما فى أصبعه ، وفى بعض الأحيان يرتدى قفازا من الجلد فى كفيه . أما لباسه فهو ضيقا للغاية ، حتى يبدو وكأنه محاكا على جسده مباشرة ، ومن الصدر يميل هذا اللباس إلى السّعة (١) .

وقد ظل البابا اينوسنت الثالث لعدة شهور ، وهو لا يعلم بأمر اختيار توماس موروسينى بطريركا للقسطنطينية . وفى ٢١ يناير ١٢٠٥ ، علم البابا بذلك ، وأعلن اعتراضه على هذا الاختيار ، ولم يكن اعتراض البابا على شخص موروسينى نفسه ، فهو على حد قوله : «نعلم نحن وأخواننا ان الشخص الذى اختير ، نبيل المولد ، شريف ، فطن ، ومثقفا بالقدر الكاف» . ولكن اعتراض البابا كان على الطريقة التى تم بها انتخابه ، لأن اختيار بطريرك القسطنطينية من صميم اختصاص البابا أو نائبه ، لذلك فقد شعر البابا اينوسنت الثالث (بالألم) لأن انتخاب موروسينى تم فى مجمع عام (٢) .

على أن البابا لم يلبث أن وافق على هذا الاختيار ، وفى ٥ مارس ١٢٠٥ تم ترقية البابا لتوماس من شماس مساعد إلى شماس ، وفى ٢٦ مارس عينه قسا وفى ٢٧ مارس جعله اسقفا ، وفى ٣٠ مارس أنعم عليه البابا بالعباءة Pallium الخاصة بمنصب رئيس الاساقفة ، مع التوصية بارتدائها فى احتفال مقدس ،

---

(1) Choniates : Historia, ed. Bonn, pp. 854 — 855.

(2) Wolf : Studies in the Letin Empire of Constantiople, Blook IX, P. 228.

Walter : La Ruine de Byzance, p. 154.

Runciman : The Byzantine Theocuacy, Cambridge University Press, 1977 pp. 138 — 139.

كما أنعم عليه بعدة امتيازات منها ، منحه الحق فى أن يحمل الصليب أمامه حيثما ذهب ، فيما عدا روما أو أية مدينة أخرى يكون بها نائب بابوى (١) .

وحسب الاتفاق السابق بين الطرفين ، كان نصيب الامبراطور بلدوين ، ربع الاراضى التى تم الاستيلاء عليها ، فمنح حكم القسطنطينية ذاتها ما عدا حى البنادقة ، ومعظم تراقيا بما فيه ادرنة ، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر ايجة ، وهى جزر ساموتريس وكوس ولسبوس وساموس ، وخيوس.

وكان نصيب بونيفيس اوف مونتفرات حكم بعض الاراضى فى آسيا الصغرى ، لكنه رفض وطلب منحة مملكة سالونيك التى كان يحكمها شقيقه من قبل ، وحتى تكون مملكته متاخمة لأملاك ملك هنغاريا شقيق زوجته الجديدة مارجريت .

ولما رفض الامبراطور بلدوين طلبه دخل الاثنان فى صراع ، وانتهى الأمر بتأييد دوق البندقية لبونيفيس وموافقته على منحه سالونيك ، مقابل قبول الماركيز بيع جزيرة كريت للبنادقة بدلا من الجنوية الذين كانوا قد طلبوا شراءها منه (٢) .

وبذلك نجح بونيفيس اوف مونتفرات فى تأسيس مملكة خاصة به تضم مقاطعة سالونيك وبعض الاراضى المجاورة لها مثل مقدونيا وتساليا (٣) .

---

(1) Wolf : op. cit., Book IX, pp. 230 — 231.
Walter : op. cit., p. 155.

والجدير بالذكر أن مورسينى لم يستمر طويلا فى منصبه إذ توفى فى عام ١٢١١ ، أنظر :

Nicol : op. cit., p. 303.

(2) Wolf : op. c t., Book 1, p. 195.

(3) V llehardouin : op. cit., p. 69.
Wolf : op. cit., p. 190.

أما البندقية فقد فازت بنصيب الأسد من تلك الغنيمة . إذ أخذ البنادقة حيا كبيرا فى القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجارى ، واستولوا كذلك على معظم الجزر القريبة من الشاطىء بما فيها جزيرة ايوبيا ، هذا زيادة على بعض المراكز الساحلية فى شبه جزيرة المورة ، ورقعة واسعة من الأرض شمال خليج كورنثة ، كذلك ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التى اشتروها من بونيفيس اوف مونتفرات . وقد كانت مجموعة الغنائم التى حصل عليها البنادقة من الضخامة لدرجة اتاحت لدوق البندقية ان يطلق على نفسه لقب «حاكم ربع ونصف أراضى الامبراطورية البيزنطية» .

وهكذا توسعت البندقية ، وأصبحت ممتلكاتها فى غرب وشرق أوروبا معا ، كما أصبح لها السيطرة كذلك على الطريق البحرى الممتد من البندقية حتى القسطنطينية ، وكان لها حق الاشراف على المضايق والممرات البحرية المؤدية للعاصمة ، فضلا عن الحى الخاص بها فى القسطنطينية وحق الاشراف على كنيسة آيا صوفيا (١) .

على أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة للصليبيين إذ أن نصيبهم من الغنيمة البيزنطية . قد وزع بين عدد كبير من أمرائهم الذين أقاموا امارات خاصة صغيرة . وهكذا استأثر كبار رجال الحملة الصليبية بالغنيمة وحدهم مما ترك صغار الصليبيين فى حالة شديدة من الحنق وخيبة الأمل .

---

(1) Wolf : op. cit., pp. 190 — 192.
Nicol : op. cit., 287 — 189.
Ostrogorsky : op. ciy., pp. 423 — 424.
هذا ، ولم ينعم دوق البندقية داندولو بهذا كله لمدة طويلة فلم يلبث أن مرض وتوفى فى مايو عام ١٢٠٥ ودفن فى احتفال مهيب فى كنيسة آيا صوفيا ، أنظر :
Villehardouin : op. cit., p. 102.
Wolf : op. cit., Book 1p. 203.

هذا بالاضافة إلى روح العداء التى استحكمت بين مختلف العناصـــر ، والجنسيات التى تألفت منها الحملة ، كما ظهر ذلك فى المنازعات بين الالمان والبرجنديين ، وبين اللمبارديين والفلمنكيين ، وبين جميع هؤلاء والبنادقة .

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين اللاتين والبيزنطيين ، فقد ظل التباعد سـائدا بين الطرفين ، فقد كان الغزاه الغربيين على درجة من الجمود والكبرياء بحيث أنهم لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها ، فى حين احتقر البيزنطيون هؤلاء (البرابرة) الغربيين الاجلاف (١) .

وهكذا تطور الصراع الداخلى بين البيزنطيين من أجل الاستحواذ على العرش ، وانتهى بهذه المأساة التى حلت بعاصمتهم على يد اللاتين .

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 379.

الخاتمة

بعد هذا العرض لأحداث الحملة الصليبية الرابعة يمكن القول أنها تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية ولعل المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه لم يخالف الصواب حين قال «ان الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيرا بفشل الحركة الصليبية بأكملها» (١) .

فقد كان المفروض أن تدعم هذه الحملة مركز الصليبيين بالشام وتعينهم على مقاومة الضغط الاسلامى الواقع عليهم ، لكن الذى حدث هو أنها أدت إلى اضعاف مركزهم بطريق مباشر أو غير مباشر . ذلك لأن قيام مملكة لاتينية صليبية بالقسطنطينية وبلاد البلقان ، عمل على جذب أعداد كبيرة من الفرسان الصليبيين بالشام الذين فكروا فى التسلل سرا وعلانية اليها لينعموا بقسط من الحياة الهادئة بعيدا عن تهديد المسلمين ومتاعبهم . وكذلك الحال بالنسبة للفرسان الغربيين الذين لجأوا هم الآخرون إلى القسطنطينية ، بدلا من التوجه إلى الصليبيين بالشام ومساعدتهم ضد المسلمين (٢) .

كما أدى فرار العائلات الأرستقراطية البيزنطية وتأسيسها لممالك فى ابيروس ونيقيه وطرابيزون والعداء الذى اشتعل بينها وبين المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ، أدى كل ذلك إلى أن أصبح الطريق البرى إلى الشام أصعب منالا وأشد خطورة على الصليبيين عن ذى قبل .

وقد اثبتت هذه الحملة أن العامل الاقتصادى والمصالح المادية أصبحا

---

(1) Grousset (R) : Histoire des Cro sades et du Royaume Franc de Jerusalem Paris 1946, Tome III, p. 175.

(2) K ng (E.J.) : The kinghts Hosptallers in The Holy Land, don, 1931, p. 176.

يحتلان المكان الأول فى تفكير المعاصرين ، فاذا سلمنا بأن الصليبيين كانت لديهم دوافع متعددة ضد الدولة البيزنطية ، فما هى دوافعهم ضد مدينة زارا المسيحية التى هاجموها واستباحوها قبل هجومهم على القسطنطينية ، اللهم الا دافع الجشع والمصالح المادية البحتة .

والآن علينا أن نحدد مسئولية كل طرف من الاطراف التى اشتركت فى هذه الحملة ، بعد أن اتضح دور كل منهم خلال عرضنا السابق للاحداث .

فيما يتعلق بالبابا اينوسنت الثالث ، فقد اتضح موقفه خلال العرض ، وكيف أنه لم يلبى التماس الأمير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس الخاص بتأييد البابا له ضد عمه الذى اغتصب العرش ، كما أنه لم يكن له أى دور كذلك فى توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، وحين علم بنية الصليبيين على التوجه ضدها ، حذرهم صراحة وبحزم من الاقدام على هذا العمل ، وهددهم بتوقيع قرار الحرمان عليهم من جديد . إذا هم لم يمتثلوا لأوامره الخاصة بعدم مهاجمة اليونان ، وأصر على ضرورة توجه الحملة لمصر مباشرة . واذا كان الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات قد استغل نفوذه ومنصبه كقائد للحملة فى عدم ابـــــلاغ الصليبيين بأوامر البابا كاملة ، فهذه ليست مسئولية البابا .

وأكثر من ذلك ، فحين وصلته انباء الفظائع التى ارتكبها الصليبيون ضد البيزنطيين ، حزن أشد الحزن ، وأرسل رسالة إلى الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات يؤنبهم على فعلتهم هذه . فقال :

«بما أنكم فى طاعة المسيح ، وأخذتم على أنفسكم العهد لتحرير الأرض المقدسة من سلطة المسلمين ، وبما أنكم منعتم تحت ضغط عقوبة الحرمان ، من مهاجمة أى أرض مسيحية أو الحاق الدمار بها ، إلا إذا أهاليها عرقلوا مروركم

أو رفضوا امدادكم بما هو ضرورى (وفى هذه الحالة لا تفعلوا شيئا بخلاف ما يشير عليكم به المندوب البابوى) . وبما أنكم لا تملكون الحق ، ولا ادعاء الحق تجاه اليونان ، فأنكم حدتم عن طهر عهدكم ، عندما زحفتم على المسيحيين بدلا من المسلمين ، واستوليتم على القسطنطينية بدلا من أورشليم ، وفضلتم كنوز الدنيا ، على كنوز الآخرة ، وما هو أكثر من ذلك كله ، أنكم لم تبجلوا الدين ، ولم تراعوا العمر أو الجنس .

لقد أصبحتم أمام العالم كله ، أهلا للبغاء والزنا والفسوق لقد اشبعتم غرائزكم الآثمة ، ليس فقط بالزواج من النساء أو الأرامل ، ولكن بأغتصاب الزوجات والعذارى اللاتى وهبن أنفسهن للمسيح . لم تفرحوا بالخزائن الامبراطورية ، وبضائع الاغنياء والفقراء ولكنكم استوليتم على ثروة الكنيسة وكل ما يخصها ، لقد نهبتم المناضد الفضية للمذابح ، وحطمتم غرف المقدسات وسرقتم الصلبان والايقونات والآثار المقدسة .

ولأن الكنيسة اليونانية أخضعت بالقوة ، فأنها رفضت سيادة الكرسى البابوى ، لأنها لا ترى فى اللاتين ، الا الخيانة والشر فقط ، لذلك فهى تعافهم كما تعاف الكلاب» (١)

ولا يمكن أن يكون البابا هو الذى حرض الصليبيين على مهاجمة القسطنطينية ، أو كان له أى دور فى توجيههم هذه الوجهة ، ثم يوبخهم كل هذا التوبيخ ويحملهم مسئولية الانحراف بالحملة على هذا النحو .

وفيما يتعلق بدور الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات ، فالواضح أنه كان

---

(1) Innocentii III :Epistolae, VIII, P. 133.

ينفذ أوامر (خاله) الملك الألمانى فيليب السوابى ، الخاصة بمساعدة الأمير اليكسيوس انجيلوس على استرداد العرش البيزنطى ، وبذل الحماية والنصح والارشاد لهذا الأمير مؤملا أن ينجح فى تأسيس امارة له بالشرق مثلما فعل أشقائه من قبل . وقد وعده اليكسيوس بتحقيق هذه الرغبة ومنحه جزيرة كريت مكافأة لـه على جهوده (١) .

أما عن البنادقة وتعمدهم تغيير اتجـاه الحملة ضـد العاصمة البيزنطية ، فالملاحظ أنه لا يوجد نص صريح يدين البنادقة ويؤكد عزمهم على توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، بل أن فيلهاردوين يوضح أن انريكو داندولو لم يكن له أى دور فى حث الصليبيين على الموافقة على دعوة الأمير اليكسيوس انجيلوس لتوجيه الحملة ضد القسطنطينية وأن الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وباقى البارونات قد اتخذوا قرارهم بالموافقة أولا ثم أخبروا به الدوق (٢) .

وحتى المعاهدة التى قيل بأنها تمت بين البنادقة والملك العادل الأيوبى فقد نص بها على تغيير اتجاه الحملة وابعادها عن مصر فقط ، ولا يستلزم ذلك بالضرورة أن تحول ضد القسطنطينية بالذات .

يضاف لذلك أن المؤرخ الفرنسى هانوتوكس Hanotaux فى بحثـه الذى نشر فى المجلة التاريخية تحت عنوان «هل خان البنادقة العالم المسيحى فى عام ١٢٠٢ م» ، قد طعن فى هذه المعاهدة ، واعتمد هانوتوكس فى ذلك على نصوص أوردها المؤرخ المسلم أبو الفدا فى حوادث سنوات ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ هـ ، ومنها يتضح أن السلطان الملك العادل الأيوبى لم يكن موجودا

(1) Wolf : Studies in the Letin Empire of Constantiople, p. 190.

(2) Villehardou'n : op. cit., p. 24.

بالقاهرة فى الوقت الذى حدده ، المؤرخ الالمانى هوبف لعقد الأتفاقية مع البنادقة وهو ١٣ مايو ١٢٠٢ م ، وأثبت أن العادل كان موجودا آنذاك فى دمشق بالشام حتى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ — ٠٤ ١ م) .

وخرج هانوتوكس من بحثه هذا بأن تاريخ هذه المعاهدةليس ١٣ مايو ١٢٠٢ م كما ذكر هوبف ، ولكنها أبرمت فى ٩ من مارس ١٢٠٨ م، أى بعد التاريخ الذى حدده هوبف بست سنوات (١) .

وبذلك أصبحت المعاهدة التى ذكرها هوبف وبنى عليها هو وعدد من المؤرخين آراءهم الخاصة بخيانة البنادقة للصليبيين وتعمدهم تغيير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية موضع شك .

أما فيما يتعلق بالآراء التى حملت فيليب السوابى ملك المانيا المسئولية فى اتجاه الحملة ضد القسطنطينية ، فالمؤكد أن فيليب السوابى كان بعيدا عن التدخل فى شئون الحملة ، حتى ظهور موضوع الأمير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس على مسرح الاحداث ، وذلك لأنشغال الملك الالمانى بالصراع الداخلى الذى اشتعل فى المانيا بينه وبين منافسه على العرش أتو الرابع اوف برنسويك . وحتى فكرة الاستعانة بالحملة الصليبية الرابعة فى استرداد العرش البيزنطى لم تأت من جانب فيليب السوابى ، وإنما جاءت من جانب الأمير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس ، الذى راسل الصليبيين وعرض عليهم مشروع مساعدته قبل أن يصل إلى المانيا ويقابل الملك فيليب (٢) .

---

(1) Hanotaux (g) : Les Venitiens ont-lis Trahi la chrestiente en 1202 ? Dans La Revue Historique, Vol. IV, 1877, PP. 87 — 101.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 18.

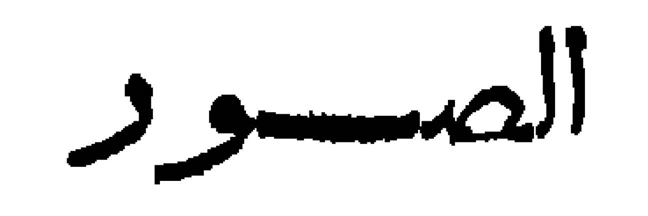
ورغم هذا كله أقول . وحتى لو سلمنا بنظرية (التعمد) . وأن انحراف الحملة الصليبية الرابعة تم بناء على اتفاقات ومؤامرات تمت بين البنادقة والصليبيين ، فانه كان من المحتمل أن يفشل حصار البنادقة والصليبيين للقسطنطينية مثلما فشلت حصارات أخرى سابقة على امتداد التاريخ الطويل لهذه المدينة .

فالمعروف أن العاصمة البيزنطية قد تعرضت لحصار المسلمين وخاصة أيام الأمويين ، وكذلك لحصارات أخرى من جانب البلغار أو من جانب الروس ، ولكنها تمكنت من مقاومة هذه الحصارات كلها بفضل تماسكها داخليا من جهة وبفضل موقعها الاستراتيجى الممتاز من جهة أخرى . وكان لابد لكى ينجح حصار هذه المدينة أن يكون العدو المحاصر لها متفوقا فى الناحيتين البرية والبحرية ، حتى يحكم حصارها من ناحية البر وناحية البحر على حد سواء . وهذا مالم يتوفر لأعدائها فى هذه الفترة التاريخية ، ولم يتوفر كذلك لصليبيى الحملة الرابعة . إذ الثابت أن حصارهم للقسطنطينية كان بحريا فقط ، وهكذا كان من المحتمل أن يفشل هذا الحصار إذا تهيأ للدولة الاستقرار الداخلى ووسائل الدفاع العسكرى اليقظ .

وفى ضوء هذه الحقائق التاريخية . لا نكون بعيدين عن الصواب اذا نحن ارجعنا مسئولية الانحراف بالحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية إلى البيزنطيين أنفسهم . واضطراب أحوالهم الداخلية فمن تدهور فى قواتهم العسكرية ، إلى انحلال الجهاز الإدارى فى الدولة ، إلى الصراع الداخلى من أجل الاستحواذ على العرش وقد كانت خطورة هذا الصراع تكمن فى استعانة البيزنطيين أثناءه

بالقوى الخارجية ، حيث فر الأمير اليكسيوس انجيلوس إلى الغرب الأوروبى وبذل الوعود المغرية للصليبيين من أجل مساعدتهم له فى إسترداد العــرش البيزنطى » .

وهكذا فمع تسليمى التام بكل ما ذكره المؤرخون خاصا بدوافع البابا والبنادقة ، وفيليب السوابى ، والصليبيين عامة . وأطماع كل هؤلاء فى الدولة البيزنطية ، الا أن الاحداث الداخلية التى مر بها البيزنطيون ، ثم إلتجائهم للغرب الأوروبى والإستعانة به على حل مشاكلهم هى التى فجرت هذه الدوافع كلها وجعلتها تعبر عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق .


الصور



الصورة رقم (١)
البابا انيوسنت الثالث



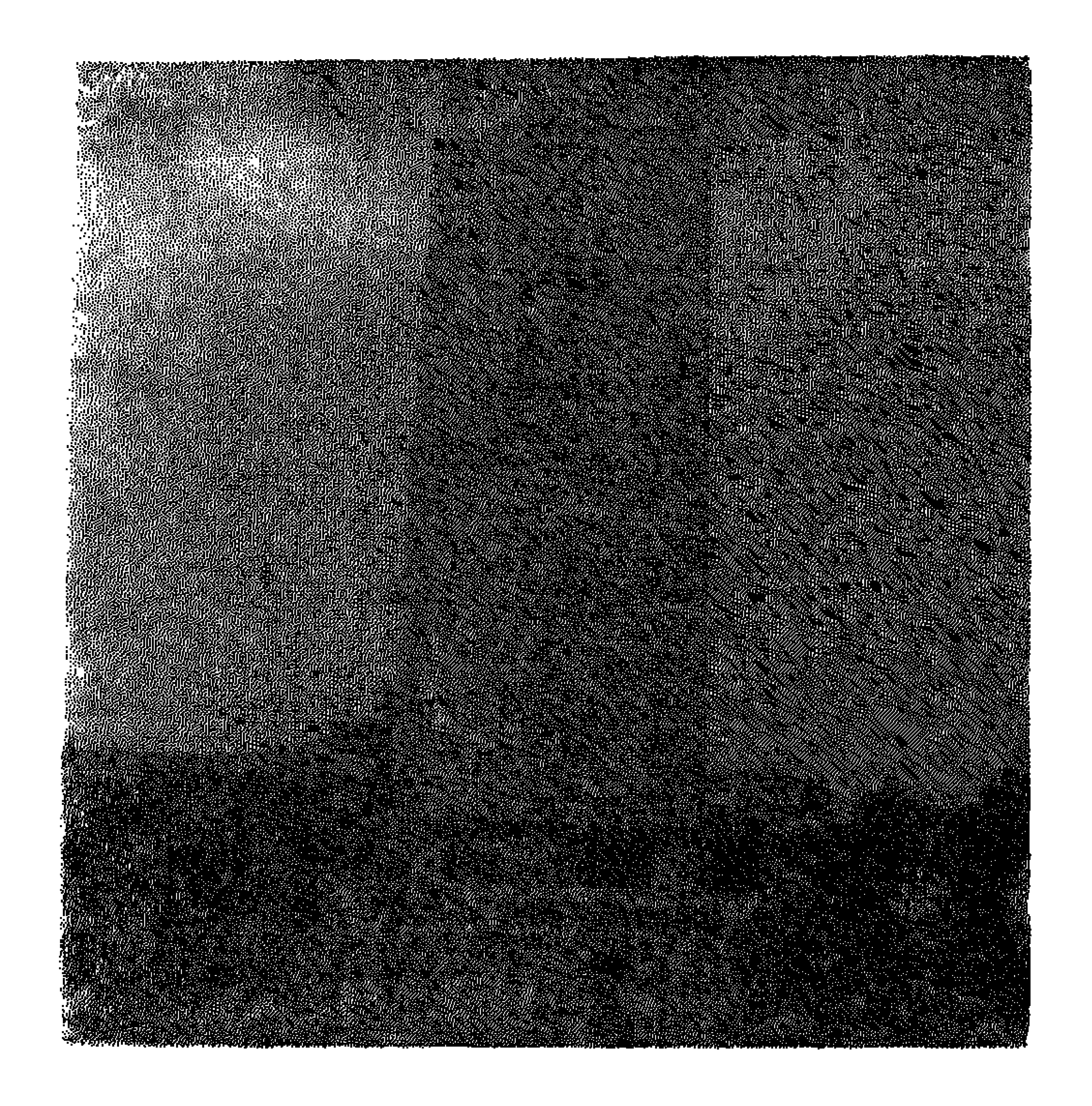
الصورة رقم (٢)
تمثال للامبراطور هرقل



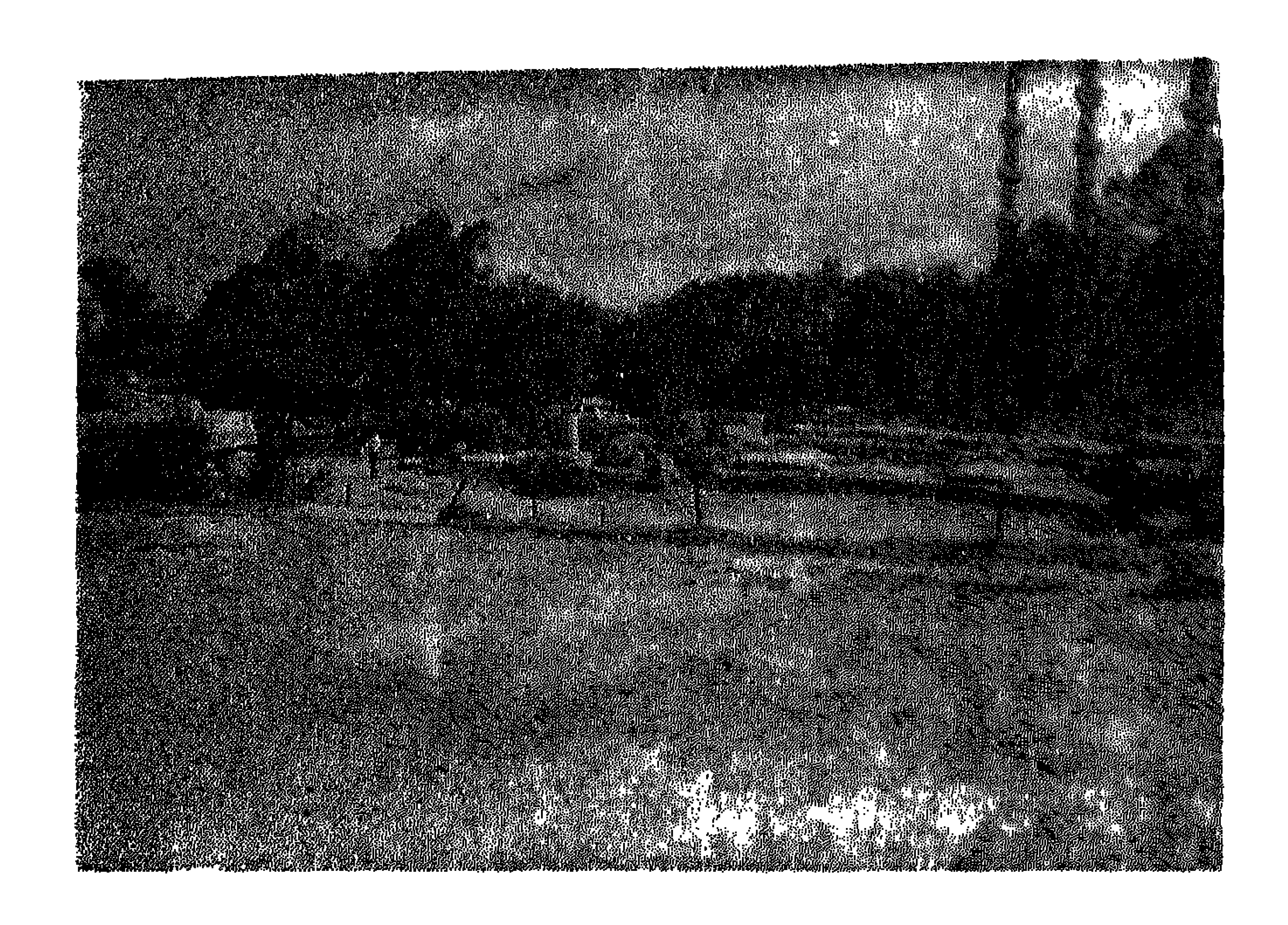
عمود الامبراطور قسطنطين
مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار الهيبدروم



المسلة الفرعونية
مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار الهيبدروم

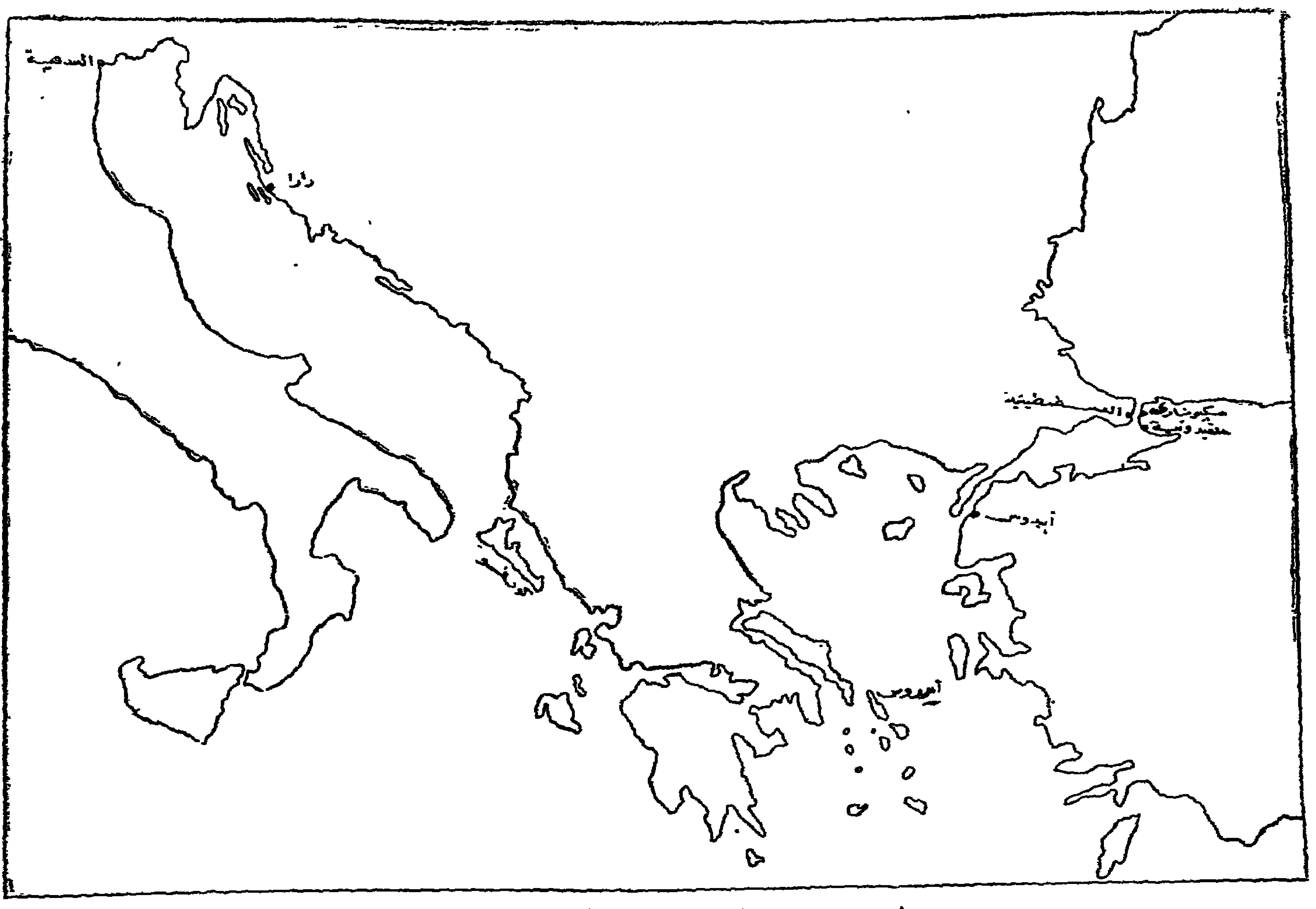


صورة عن قرب للمسلة الفرعونية
مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار للهيبادروم

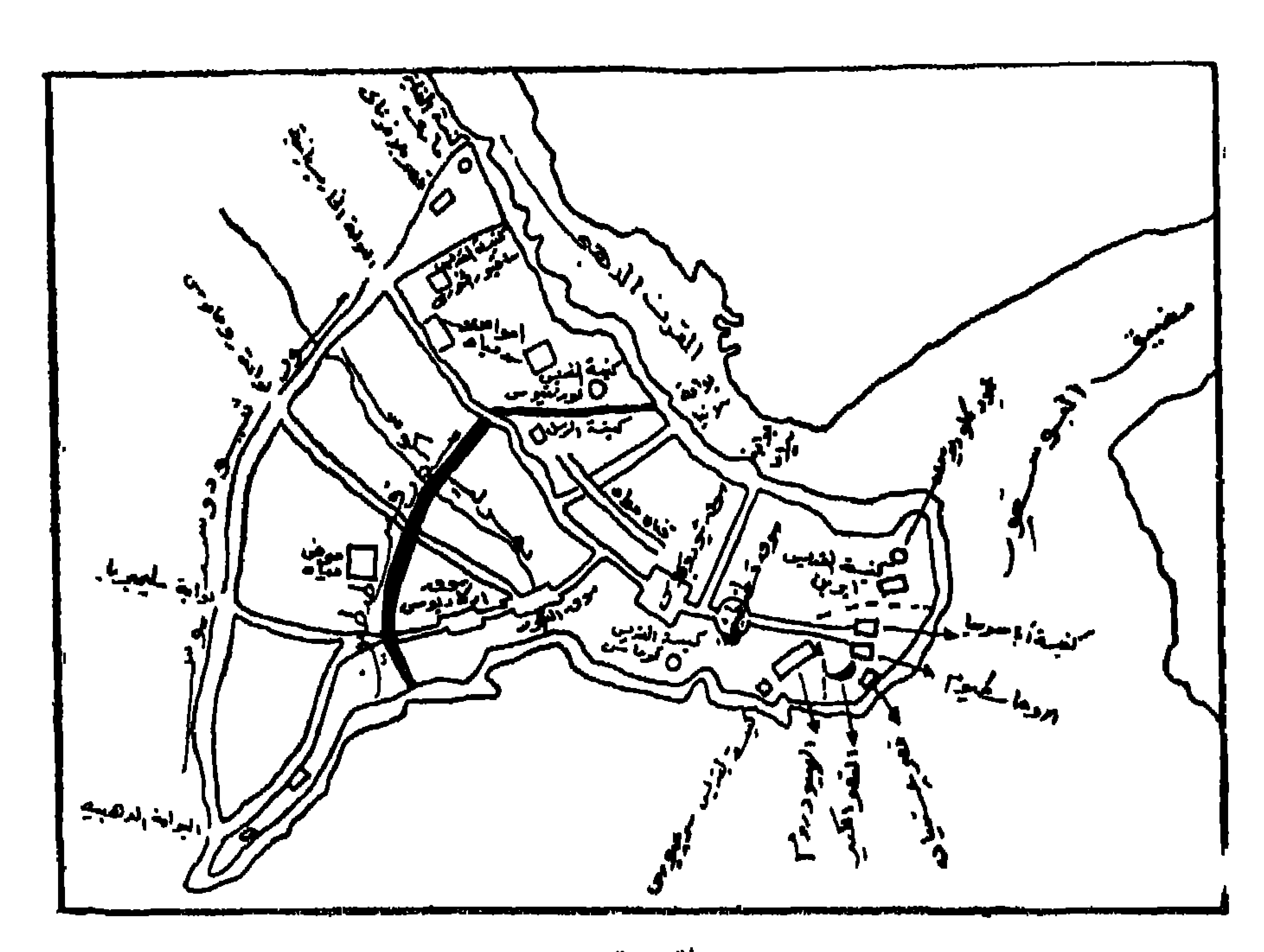


مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار الهيبدروم

الخـــــرائط



خريطة رقم (١) خط سير الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤



خريطة رقم (٢)

مدينة القسطنطينية وأهم معالمها

عند فتح الصليبيين لها فى ١٤٠٢

المراجع العربية

— أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦ .

— السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (٣٢٣ — ١٠٨١) ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

— سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، جزءان الأول ، بيروت ، ١٩٧٢ ، الثانى ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

— عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى (الأمبراطور يوحنا تزيسكس ، وسياسته الشرقية — ٩٦٩ — ٩٧٦) الاسكندرية ، ١٩٦٦ .

المراجع المعربة

— بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد . القاهرة ، ١٩٥٠ .

— فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العرينى ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر .

— لويس : القوى البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

المراجع غير العربية

Barrachough (g) : The Medieval papacy, London, 1975.

— Brehier (L) : Vie dt mort de Buzance, ed. Albin Michel, Paris, 1969.

: La Civilisation Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.

: L'Institutions eL'Empired Byzantine, : ed. Albin Michel, Paris, 1970.

— Choniates (N) : Historia, ed Bekker, incorpus Scriptrum Historiae, Byezantinae, Bonn, 1835.

— Clari (R) : La conquete De constantiople, Editee Par lauer, paris, 1924.

— Diel(Ch) : Une Republique Patricienne, Venise, (Bibliotheque de Philosoph e scientirique), 1928.

— Fooed : The Byzantine Empire, London, 1911.

— Gibbon(E) : The decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, New York, 1976.

— Grousset(R) : Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1956.

— Guillon(A) : La civil sation byzantine, Arthand, Paris, 1974.

— Hanotaux(g) : Les venitiens ont-ils trahi la chretienté en 1202 ? Dans la RevueHistorique, Vol. IV, 1877.

— Hopf : Gesch chte gr cehenlandz von Beg nn des Mittelalters lis unsere zeit, in Eresch-gruber Encyclopedia, vols. 85—86, , 1867 — 1868

— Hussey(J) : The later Macedonians, The Comneni and the Angeli, 1025 — 1204, inc M.H., Vol. IV, part 1, ed. Hussey, Cambridge, 1975.

— Innocentii III : Epistolae, in Patrologia Latian, ed Paris, 1855.

— Jacob (E) : Innocent III, in C. M. H. Vol. VI, ed. Hussey, Lonodn, 1975.

— King(E) : The Kinghts Hospitallers in The Holy Land, London, 1931.

— Kinnamos (J) : Deeds of John and Manual Comnenus. Translated to English by Charles M. Brand, Columbia University Press, New York, 1976.

— Labisc : Histoire de France, Paris, 1911.

— Luchaire (A) : Innocent III, La question d'orient, Paris, Hachette, 1907.

— Mas-Latrie (L) : Histoire de l'ile de Chypre souses princes de la maison de Lusignan, 3 vols, Paris, Imprimerie Imperiale, 1852 — 1961.

— Miller : Imperial Constantiople, U. S. A. 1969.

— Nicol : The Fourth Crusade and The greek and Latin Empires, 1204 — 1261, in C. M. H, Vol. IV, part 1, ed. Hus sy, Cambridge 1975.

— Norden (W) : Der vierte kreuzzug in Rahmen der Beziehungen des Abendlander Zu Byzanz, Berlin, 1898.

— Ostrogrosky : History of the Byzantine State, English Trans. by Hussey, Oxford, 1968.

— Painter(S) : A History of The Middle Ages, New York, 1954.

— Pears(E) : The Fall of Constantinople being the Stroy of the Fourth Crusade, New York, 1975.

— Psellus (M) : Chronographie, Traduit de grec par Renauld, Tome 1, Paris, 1926.

— Riant . Innocent III, Philippe de Souabe et Boniface de Montferrat, dans Revue des questions historiques XVII, 1875. XVIII, 1875.

— Runciman (S) : The History of the Crusades, Vol. 3, : Cambridhe University Press, 1966. The Byzantine Theocracy, Cambridge : University Press 1977.

: Byzantine Civilisation, Seventh Impression, Great Britain, 1975.

— Tessier(J) : La quatrieme croisade, La division sur Zara et Constantinople, Laroux, Paris, 1884.

— Toynbee (A) : Constantine Porphyrq ogenitus and his world, london, 1973.

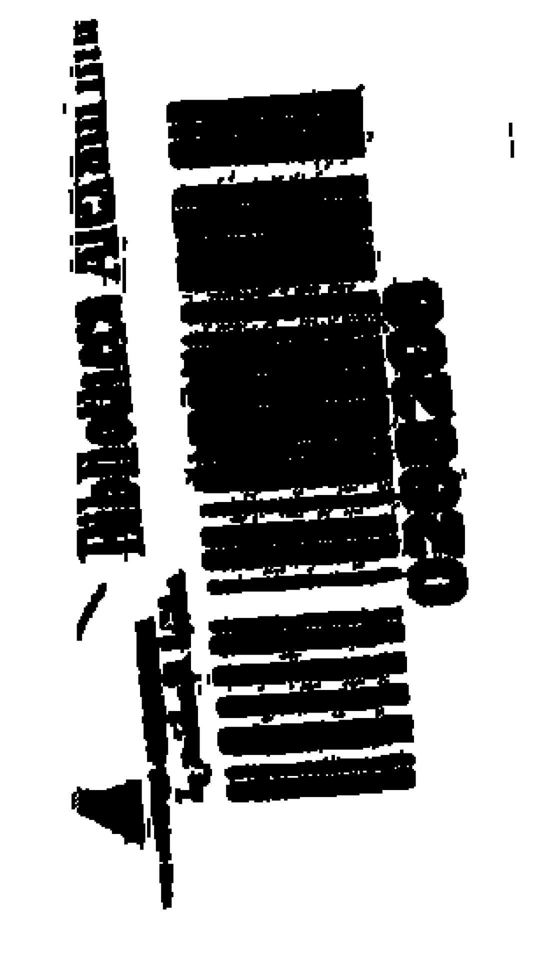
— Vasilien : History of the Byzantine Empire (324—1453), U.S.A. 1971.

— Villehardouin (g) : La Conqueste de Constantinople par les Barons Francais associez qux Venitians l'an 1204. English translation by Sir Marzials, London, 1965.

— Winkelman : Philip Von Schwaben und Otto Von Braunschweig, Vol. I. Leipzig, 1873.

— Workman : The Evolution of the Monastic Ideal, London, 1927.

طبــع بمطابع جــريدة السفير
٤ شــارع الصحافة بالمنشية
اســكندرية ــ ت : ٨٠٣٩٦٤



١/١٢٢١٢٧

دار المعـارف ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القــاهرة
الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول ـ ٢ ميدان التحرير (المنشية)